أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة

الزين ابن الجبال

(١)

Looloo
www.dvd4arab.com

أحمد محيى الدين

مقـــــدمة

الشجاعة تميزه ..

والقوة لا تنقصه ..

والخبرة يسعى إليها ..

والصحبة الطيبة تلازمه ..

الزين هـــو شـــاب تبناه وعلمه الشجاعة وأخلاق الفرسان الشيخ (عبدالحميد التوحيدى) .. الفارس المخضرم ..

وتوسم الملك (شاكسير) ــ الذى ليس له ســـوى (ســـولى) ابنته الأميرة ــ فى (الزين) أن يصبح ملكًا للبلاد من بعده ..

فيقوم بتأهيله ليكون كذلك ..

يحـــكى له مـــن خبراته .. ويرسله عبر البـــلاد ليكتســـب خبـــرات خاصة به ..

(الزين) على استعداد لفعل كل شىء من أجل (سولى) الأميرة التى يحبها .. وتحبه ..

ومن أجل بلاده التى نشأ فيها ولا يعرف غيرها .

لا يسعى الزين ليكون ملكًا .. ولكنه سيكون ..

لا يسعى الزين لأن يكون أسطورة ..

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكنه سيكون ..

يعلم (الزين) أنه لا أحد ينجز أشياء عظيمة فى الحياة بمفرده .. لذا فقد حباه الله بصديقه (علىّ) ، ومربيه الشيخ (عبدالحميد) ..

سيجوب (الزين) البلاد بحثًا عن الصبر فى بلاد الغيظ ..

وعن الحق فى بلاد الظلم ..

وعن الجوع فى بلاد الغنى ..

وسيواجه الخطر لأجل ذلك ..

أين سيواجه (الزين) الخطر ؟

ومن سيواجه من صنوف البشر ؟

هذا ما نجابهه مع الفارس فى سلسلة مغامراته كلها ..

المؤلف

١ ـ علىّ التوحيدى ..

يسير بهدوء عبر سوق المدينة جواد يمتطيه (الزين) الذى جذبت مسامعه جلبة ، التفت فرأى فتاة وجاريتها يلملمان أشياء سقطت منهما ، وبائعًا مسنًّا يعتذر عن خطأ غير مقصود .. رمى بنظره على ما سقط فوجد برتقالات ، وبينما الجارية تطيّب خاطر البائع ، رفع بصره لوجه الفتاة .. ولمح حمرة خفيفة تزحف على وجنتيها عندما لاحظت وقوفه لمتابعتها دون المارين جميعًا .. كانت تنظر لعينيه فشعر بشىء يجتاحه للحظة ، لم يعرف كنهه .. وناداه شخص يهرول ناحيته لاهثًا يهمس بكلمات ، جذب بعدها (الزين) لجام جواده ، فرفع الحصان قدميه الأماميتين مطلقًا صهيلاً عاليًا ، انطلق بعده بصاحبه المطارَد بنظرات الفتاة .

* * *

ظهر (علىّ) مقبلاً على صهوة جواده الراكض يلوّح بسيفه ، وعلى جبينه تقطيب شارك مع عينيه فى صنع لوحة غضب بملامحه ، ثم وصل إلى بعض الرجال ذوى الملابس الخضراء الخشنة البدوية ، يبارزهم بسيفه .. فخرج عدد آخر بنفس الملابس من خلف الصخور القليلة المتناثرة فى الواحة ، كاد لهذا أن يزرع بذرة شك فى قدرته على الصمود أمامهم ، وخشى أن تكون نهايته سريعة على أيديهم ، لكن بينما هو يبارزهم متفاديًا أحدهم طاعنًا آخر ، تعالى إلى مسامع الجميع ضرب حوافر جواد تعلو من خلفهم ، وصوت من يمتطيه يصيح :

ـــ لقد جئتُ يا (علىّ) .. أنا معك .

ارتبكت صفوف ذوى الملابس الخضراء عندما رأوا الفارس المقبل

Looloo
www.dvd4arab.com

وصاح أحدهم بتوتر :

ـــ إنه (الزين) .. (الزين ابن الجبال) .

تمتم آخر بغضب :

ـــ الفارس ؟! سحقًا .

كان الفارس شاهرًا سيفه فاتجه نفر منهم يبارزونه ، بينما استعاد (علىّ التوحيدى) ثقته كاملة مرة أخرى ، وظهرت مهارته فى المبارزة أكثر وهو يطيِّر سيف أحدهم ويخدش كتف آخر متفاديًا قتل أى منهم .. ما كاد ينتهى من آخرهم حتى سمع صوت (الزين) يقول :

ـــ هيا افرغ من الأخير يا (علىّ) فلدينا أمر طارئ .

رد (علىّ) وهو يغرز سيفه بذراع آخر من بقى على صهوة جواد يسأل :

ـــ هل فرغت منهم بهذه السرعة ؟!!

ـــ نعم يا (علىّ) ، لقد سئمت سؤالك هذا كل مرة .

ابتسم (علىّ) وهو ينطلق بجواده محاذيًا (الزين) وهو يسأله :

ـــ ما هذا الطارئ الذى تطلبنى إليه ؟

ثم استدرك قائلاً :

ـــ وكيف عرفت بأمر مبارزتى مع هؤلاء الرجال ؟!

ـــ أمر معرفتى هذا سأفسره فيما بعد ، أما الآن فعلينا اللحاق بالشيخ (عبد الحميد) فى داره ، بعض اللصوص حاولوا اقتحام بيته ، لكن أمسك بهم الجيران .

ـــ ما كان هذا ليثير اهتمامك يا (زين) ، فهو أمر بسيط سيتولى الرجال تصفيته ، إن فى الأمر أمرًا .. أخبرنى به .

ابتسم (الزين) وهو يقول :

ـــ صـــدقت يا (علىّ) ، إن فى الأمر أمرًا .. ألا ترى أنه ليس من الطبيعى حدوث هذا للشيخ (عبد الحميد) ؟

* * *

عندما وصل (الزين) و(علىّ التوحيدى) دار الشيخ (عبد الحميد) ، وجدا أن اللصوص قد اقتيدوا إلى القاضى لينظر فى أمرهم ويحكم ، وكان الشيخ يجوب أرجاء منزله قبل أن يجيب دقاقمها على الباب ، ثم عاد لما كان عليه مرة أخرى ، فســأله (الزين) :

ـــ هل تبحث عن شىء يا شيخنا ؟

ـــ أبحث عما سرقه اللصوص يا (زين) .

قال (علىّ) :

ـــ ولكن الجيران أخبرونـــا بأنهم فتشـــوا اللصوص ولم يجدوا معهم ما يريب أو يدل على سرقة ، أظن أن جيرانك كشفوهم فى الوقت المناسب .

ـــ أشياء تخصنى كنت أخفيها اختفت يا (علىّ) ، كُتب وخرائط قديمة تهمنى جدًا .

قال (الزين) :

ـــ هل نبحث معك ؟

هز الشيخ رأسه نفيًا وهو يقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ لا فائدة ، بحثت فى كل مكان .. لقد نالوا مرادهم .

ـــ كيف إذن والرجال قد فتشوهم ولم يجدوا شيئًا معهم ؟ بل وكيف أيضًا عرفوا ما تحبّئ ومكانه يا شيخ (عبد الحميد) ؟

جلس بائسًا وهو يجيب :

ـــ لا أدرى يا (زين) .. حقًا لا أدرى .

قال (علىّ) :

ـــ لابد أن نخبر القاضى إذن باختفاء أشيائك يا شيخ .. فهو أغلب الظن الآن سيعاقبهم بتهمة محاولة السرقة ، وليست السرقة فعلاً .

ـــ لن يُجدى شيئًا يا (علىّ) ، فكما قال (الزين) لم يجد الرجال معهم شيئًا ، فكيف سرقوا إذن ؟

ـــ والأشياء مختفية ؟

ـــ نعم مختفية ، ليست مسروقة ، سيقول القاضى إنها إهمال منى لا سرقة .

قال (الزين) :

ـــ يا إلهى .. لكن ربما أخفوها فى المنزل ليعودوا لها فيما بعد ، فلنبحث فى المنزل .

ـــ بحثتُ يا (زين) .. الأمر أكثر دهاءً مما ترى ، ولكن يجب أن نتوصل إليه .

ـــ كيف يا شيخنا ؟

ـــ فقط سنعرف .. تعاليا معى .

وغادر الجميع الدار .

* * *

الليل .. و(الزين) يتقلب فى رقدته تحت الغطاء ، يتابع إنصاته الذى طال لدقات قلبه المنمقة الهادئة .. هو الذى لم يعتد قلبه على هذا الحال من قبل .. جذب هذا القلب انتباهه كأنما لأول مرة يكتشف أن بين أضلاعه قلبًا ، حسبه من قبل طبلة يعلو قرعها وقت الشدائد ويسكن فى لحظات الهدوء .

ظلت صورة الفتاة تعبر أمام عينيه كل فينة منذ تركها ، صورة غير محددة ، ربما لأنه لم يحفظ شكلها بهذه السرعة ، نظرة سريعة لا تكفى ، لكن فى المرة القادمة عليه أن يحملق جيدًا لحفر صورتها فى ذاكرته .. « وهل هناك مرة قادمة ؟ بلا شك .. بل لابد من مرة قادمة » .

رفس بقدميه الغطاء ، ثم اعتدل من رقدته وجلس ساخطًا على الأرق ، لم تلبث أن داعبت شفتيه ابتسامة ، وصورها غير المحددة تمر أمام عينيه من جديد ..

ـــ متى سأراها .. أقريبًا ؟؟

ـــ بل سريعًا جدًا .

ـــ هل سأتعرفها إذن ؟

ـــ تبًا ، أأحادث نفسى ؟

ـــ هل جننت ؟

ـــ هل عشقت ؟!

Looloo
www.dvd4arab.com

كان يتساءل ويجيب ، ثم استرجع كل ما قيل عن الحب الذى يصنع الخيال .. إنه لا يزال فى بداية هذه المشاعر ، وعندما يتعمق فيها سيصاب بالمزيد .. لكنها ليست بالمشاعر السيئة على كل حال .

* * *

أمر الملك (شاكسير) الحاجب باستدعاء الوزير ، ثم اتجه بحديثه إلى ابنته يسألها :

ـــ أين كنت ووصيفتك ؟ بحثنا عنكما فى القصر والحديقة كثيرًا .

ـــ كنت فى المدينة يا أبى ، أتفقد أحوال الناس وأستشعر آراءهم فى الحكم والحاكم .

استرعى الأمر اهتمامه فسألها :

ـــ مـــاذا وجدت إذن ؟

ـــ الرضا يا مولاى .. إنهم قوم طيبون يا أبى والجميع يجد قوت يومه ، ولكن لاحظت حديثهم بنفور عن ذوى الملابس الخضراء .. قوم يقيمون فى الجبل على الجانب الشرقى من المدينة ، يقتحمون البلد ودكاكين التجار بين حين وحين .. فهمت أنهم قُطّاع طرق ولصوص لا تأمن الرعية على حياتها وأموالها منهم .

ـــ لقد بذلت ما فى وسعى لإقصائهم وعزلهم ، ولكن دون جدوى .. إنهم ماهرون فى الاختفاء والمبارزة .

ـــ ولكن يا أبى ...

دخل الحاجب معلنًا وصول وزير الدولة ، فأمره الملك بالانتظار حتى ينتهى من حواره مع الأميرة ، وبعد خروج الحاجب قال :

ـــ لكن ماذا يا بنتى ؟

ـــ سمعت أثناء عودتى أن شابين قـد تبـارزا مع بعض من ذوى الملابس الخضراء هؤلاء ، وأنهم قد أذوهم دون قتلهم .

بدا الاهتمام على وجه الملك وهو يسألها :

ـــ شابان ومن يكونان ؟ ولماذا تبارزا معهم ؟ لماذا دون قتلهم ما داما قد تغلبا عليهم ؟!

ابتسمت الأميرة وهى تقول :

ـــ مهلاً يا أبى .. لا أعرف إجابات كل هذه الأسئلة ، فقط نقلتُ إليك ما علمته من أحوال الناس وما يدور بينهم .

ـــ لا بأس يا فتاتى ولكن كيف لأميرة مثلك أن تخرج وسط المدينة وتتعرف أخبارها ؟!

ـــ بالطبع لم أكن أميرة يا أبتِ ، فقد ارتديت ملابس متواضعة كالدارجة بينهم ، وكذا وصيفتى .

ثم قالت بمرح مفاجئ :

ـــ هل تعلم يا أبى .. لقد ابتعتُ برتقالاً كثيرًا .

ضحك الملك وهو يقول :

ـــ بالخارج أراضٍ مديدة نزرع فيها كل أنواع البرتقال .

ـــ ولكن البائع الطيب كان يستحق أن أشترى منه كل ما يبيع .

ـــ حسن يا بنيتى .. اذهبى إلى غرفتك الآن ، ولا تكررى مثل هذا الفعل قبل أن تخبرينى .

www.dvd4arab.com

انحنت قائلة فى تأدب :

ـــ سمعًا وطاعة يا مولاى .

ثم خرجت من الديوان ، وأمر الملك بدخول الوزير .

* * *

عندما شارف جواد (الزين) على الاختفاء عن ناظريها ، ألقى بنظرة خاطفة ناحيتها بسرعة لكن حجبها الغبار عنه ، هى تحت هذه الالتفاتة ، فتألقت ابتسامة جذابة على شفتيها كأنما ترسلها له دون وعى .

جلست فى غرفتها تحاول استعادة ملامحه حتى لاحظت صدرها الذى يخفق كنبضات عصفور ، ثم أطرقت برأسها خجلة عندما تذكرت تلك الحرارة التى شعرت بها فى وجنتيها وأذنيها عندما نظر إليها الفارس .. أهو حقًا فارس ؟ كل شىء فيه يشى بذلك ، نظراته .. ملابسه .. وضعية جلوسه على الجواد .. كل شىء ، ولكن ما اسمه ؟ من يكون ؟ أهو أحد اللذين تقاتلا مع الرجال الأشرار ؟ أهذا تركها بسرعة دون أن يتحدث إليها فى السوق ؟

ما هذا الذى تشعر به الآن ؟ إنها لم تنتبه لشاب من قبل كما حدث مع هذا الفارس .. ما اسم هذا الذى تشعر به إذن ؟

وانتفضت على صوت الوصيفة تستأذن فى الدخول .

* * *

بعد أيام ، اقتحم كبير الجند ديوان الملك (شاكسير) بعصبية :

ـــ كارثة يا مولاى .. جيوش الغرب تتجه إلينا متحفزة .

كان فى القاعة بعض ولاة المدن التابعة لحكم الملك (شاكسير) ، وقد كفوا عن الحديث عند الدخول المفاجئ ، سأله الملك بقلق :

ـــ لأى غرض ؟

ـــ الحرب يا مولاى .. الحرب ، طريقتهم فى التقدم تدل على نية الغزو ولا غير .

ـــ متى سيصلون ؟

ـــ (عين الدولة) يقول إنهم على مسيرة أقل من يوم .. هو الذى اكتشف زحفهم وجاء يبلغنا .

امتلأت القاعة بهمسات كثيرة ، بينما وقف الملك يدور فيها كعادته كلما استدعاه أمر للتفكير ، ثم سأل الحضور :

ـــ ماذا ترون ؟

وجه أحد الولاة سؤالاً :

ـــ كم عدد الزاحفين يا كبير الجند ؟

ـــ كثير يا سيدى .. جيادهم تثير غبارًا كالعاصفة .

تساءل آخر :

ـــ لماذا ينوون الحرب ؟ تجارتنا معهم رائجة وما عادياهم من قبل .

أجاب أحد الجالسين :

ـــ يطمعون فى خير بلادنا ويهددون أمن أهلها .

جلس الملك على عرشه بينما قال رابع :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ هُراء .. لسنا مطمعًا لهم فى شىء ، كل ما يريدونه يحصلون عليه بالتجارة منذ سنين .. هناك ما يريب .

قال الملك بلهجة حازمة :

ـــ جهز رجالك يا كبير الجند ، فعلينا حماية البلاد والدفاع عنها فى كل الأحوال .. وحاول أن تبعث إلىّ بقائد جيشهم فور وصوله للتفاوض معه ومعرفة سبب عدائهم المباغت ، فلسنا بلاد حرب ولا حاجة لنا بها .

انحنى كبير الجند وهو يتراجع بظهره قائلاً :

ـــ سمعًا وطاعة يا مولاى .

صاح الملك بانفعال :

ـــ أين وزير الدولة ؟

* * *

ـــ كيف عرفت بملاقاتى ذوى الملابس الخضراء يا (زين) ؟

ـــ أنت تُكثر من الأسئلة هذه الأيام يا (علىّ) ، هوّن عليك .

ـــ بل أنت تتجاهل الرد ، أربعة أيام حتى الآن ولم تجب سؤالى هذا .

ـــ علمتُ بطريقى يا (على) ، فأنت صديقى الوحيد ولابد أن أعرف عنك كل شىء ، حتى المكان الذى ستقاتل فيه بعض الحمقى بسبب تحدٍّ غبى فى لحظة غضب .. لابد أن أعلم به ولو لم تخبرنى بنفسك .

كما تشاء يا (زين) .. لن أكرر سؤالى هذا مرة أخرى .

كانا يسيران فى المدينة قبل أن يتوقف (الزين ابن الجبال) ويسأل :

ـــ ألا تعرف ماذا فعل الشيخ (عبد الحميد) بعدما لم يجد أشياءه المفقودة ؟

ـــ أظنه يحاول كتابة غيرها .. لقد ذكر شيئًا ما عن مخطوطات أولية أو ما شابه .

ـــ عظيم .. هيا بنا نذهب إليه ، قد يحتاج لمعاونتنا .

ـــ ألن تخبرنى كيف عرفت مكانى يومها ؟

وقف (الزين) يقهقه كثيرًا حتى جذب أنظار المارة فى شوارع المدينة ، مما أخجل (علىّ التوحيدى) الذى ترك صديقه يقهقه وحيدًا وسار مبتعدًا عنه ..

فى صمت .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

٢ ـ الحكـايـة ..

وقف قائد جيوش الغرب أمام الملك (شاكسير) واستهل حديثه بـ :

ـــ لو لم أرجع لجنودى خلال ســاعة ، فسيقتحمون القصر ويكتسحون كل ما فيه .

قال الملك بهدوء :

ـــ أنت هنا فى أمان ، ولك حرية الانصراف وقتما شئت .

ـــ هذا عظيم .. فقد غامرتُ بتلبية رغبتك للمثول أمامك كما أخبرنى قائد جنودك .

ـــ أنت هنا فى ضيافتى ، ولا مغامرة فى الأمر ، إنما أردت سؤالك عن سبب شروعكم غزو مملكتى .

ـــ اتقاء لشركم .. لقد وصلنا أنكم تخططون لغزو بلادنا .

بدت الدهشة على وجه الملك وهو ينهض سائلاً :

ـــ من أخبركم بمثل هذا ؟ وما الدليل على نية سيئة نضمرها لكم ؟

ـــ وصلتنا بعض خرائط مرسومة لحدود دولتنا وبعض دول أخرى ، وكُتب عن تاريخ الحروب وفنون القتال ، كتبها رجل من بلادكم علمنا أنه على ولاء للسلطة وارتباط بالملك .

ـــ من يكون هذا الرجل ؟ وكيف وصلتكم أشياؤه هذه ؟

ـــ وصلتنا من محبى سلام فى بلادكم لن نفصح عنهم .. والرجل يدعى الشيخ (عبد الحميد) ، هكذا اسمه على أغلفة الكتب وأذيال الخرائط .

ـــ الشيخ (عبد الحميد) ! إنه رجل مخلص للوطن وداع للسلام بين الشعوب ، بالفعل هناك صداقة بينى وبينه وهو مؤيد لسلطتى فى البلاد كأى من أفراد الرعية ، ولا نضمر نيـــة لغزوكم أبدًا .. سأستدعيه أمامك لنعرف كل شىء ، فهل توافق ؟

أخذ الرجل يتفحص وجه الملك ليتبين صدق كلامه من عدمه ، ثم أدار عينيه بين الحضور ، وكانوا وزير الدولة وكبير الجند والحاجب ، ثم أجاب :

ـــ لا بأس ، ولكن علىّ إبلاغ جنودى بتأخرى عنهم قليلاً .. وأرجو نداء معاونى الأول من بينهم ليكون معى .

ـــ سيقوم بهذه المهمة البسيطة كبير جندنا ، بينما يذهب الحاجب لاستدعاء الشيخ (عبد الحميد) .

خلع قائد جيش الغرب خاتمه المرصع بيواقيت صغيرة على جوانبه ، مسحه فى ملابسه وناوله لكبير الجند وهو يقول له :

ـــ ناولهم هذا الخاتم ليثقوا فى كلامك .

أخذ كبير الجند خاتم قائد الجيوش وخرج من القاعة ، بينما بعث الملك حاجبه لتنفيذ أمر استدعاء الشيخ ، ثم نادى بضيافة كبير جيوش الغرب ومعاونه القادم ، وبتقديم الماء للجنود المنتظرين على حدود المدينة .. قال الوزير للرجل :

ـــ أنتم ـ أهــل بلاد الغرب ـ شديدو العصبية متسرعون فى اتخاذ قراراتكم .. لا تحكّمون عقولكم برويّة .

كان القائد قد جلس بعد انصراف كبير الجند فأجاب :

ـــ ليست بلادنا فى دفء بلادكم يا وزير بلاد الشرق ، ولهذا الأمر

Looloo

تأثير بالغ على تصرفاتنا .

ـــ أرجو ألا تطمعوا فى دفء بلادنا إذن .

ـــ نحن قوم مسالمون ، لكن عندما نلمح الخطر يقترب من بلادنا .. فنحن شديدو الخطورة .

ـــ لا داعى لهذه التعبيرات المعادية .. سوف تكتشف أن فى الأمر التباسًا شديدًا ، وأن هناك من يسعى لإيقاع الفتنة بيننا وبينكم بطرق رخيصة ، وما كان يجب أن تنطلى عليكم .

ـــ نحن فى الحياة لنتعلم أشياء كل يوم .

قال الملك وهو يبتسم :

ـــ قائد حكيم .. إن إمبراطوركم لمن الحكمة أن عيّنك قائدًا لجنوده .

ـــ شكرًا لإطرائك جلالة الملك .

تابع الملك :

ـــ ما اسم ضيفنا قائد جيوش الغرب ؟

عرّف الرجل نفسه ، بينما رجع كبير الجند يقول :

ـــ لولا الخاتم ما شربوا الماء !

قال مساعد قائد جيوش الغرب بعصبية وهو يتبعه للقاعة :

ـــ بل ولقتلوك واقتحموا المدينة !

رحب به الملك ، فرد عليه التحية بشىء من الفظاظة .. بعدها كبير الجند سأل :

ـــ ولكن لماذا فحصوا الخاتم طويلاً قبل أن يستمعوا إلىّ ؟

أجاب المساعد :

ـــ إنها أمور خاصة بنا لا يطّلع عليها غريب يا هذا .

كانت فى لهجته عدائية واضحة خاصة مع تعبيرات وجهه الغاضبة ، فأنقذ قائد الجيوش الموقف بقوله :

ـــ لا بأس أن نخبرهم لنظهر لهم ـ على الأقل ـ حُسن النية ، وأننا قد جئنا دفاعًا عن وطننا لا اقتحامًا لأرضهم .

ابتسم الملك وأعجب كبير الجند بما قيل ، فاستطرد قائد الجيوش قائلاً :

ـــ لو أنك انتزعت الخاتم وأعطيته لهم بعد عراك بيننا ، لناله بعض الغبار فيعرفوا أننى أسيركم ، أما لو أنك أخذته بعد قتلى فلتلطخ ولو بقطرة دم ، حتى لو مسحتها لعرفوا من مذاقه .. عندئذ يعرفون أنى قُتلت .

ـــ ألهذا مسحت الخاتم فى ملابسك قبيل مناولتى إياه ؟ ظننتك فعلت لتحافظ على بريق ياقيته الدقيقة .

ـــ ربما هو سبب أيضًا يا كبير جند بلاد الشرق .

قالها مبتسمًا ، بينما مساعده على حاله من التجهم .. والملك يتابع الحديث المتبادل بقلق لتأخر وصول الشيخ (عبد الحميد) ، ثم قال لمساعد القائد :

ـــ تفضل من الفاكهة والشراب يا مساعد القائد

Looloo
www.dvd4arab.com

نظر معاون قائد جيوش الغرب لقائده الذى أومأ برأسه ، فتناول مما أمامه وأخذ يتذوقه ، ثم يقضم بحذر .

* * *

ـــ الملك يريدنى أنا ؟!

ـــ نعم يا سيدى .. بل ويتعجلك أيضًا .

ـــ حسن سآتى معك .. فقط انتظرنى هنيهة .

عاد الشيخ (عبد الحميد) للداخل فسأله (الزين) :

ـــ ماذا هناك يا شيخ ؟!

ـــ الملك يطلب حضورى فورًا .

ـــ هل نأتى معك ؟

ـــ لا أدرى .

أخذ يبدل عباءته ويسوّى لحيته وشعره ، ثم قال :

ـــ بل ابقيا هنا ، أكملا رسم الخرائط كما أوضحت لكما .. أرغب فى الانتهاء من هذا الأمر سريعًا .

ثم خرج للحاجب يصحبه إلى القصر .. قال (على) :

ـــ تُرى ماذا هناك يا (زين) ؟

ـــ لا أعلم يا (على) .. فلم يسبق للملك استعجال الشيخ (عبد الحميد) بهذه الطريقة .

ـــ فى رأيك ماذا علينا أن نفعل ؟

ـــ لا شىء .. سننفذ ما طلبه منا لننتهى من أمر الخرائط هذا بسرعة كما يريد .

قال (على) وهو يقلد خريطة أمامه بخطوط ملونة فى ورقة أخرى :

ـــ هل تتذكر عندما كان هذا الرجل عالمًا وفارسًا لا يشق له غبار ؟

ـــ ما زال عالمًا يا (على) وروح الفروسية بداخله تنبض طوال الوقت .

ـــ أنا أشكر له أن رعانى واهتم بى منذ حداثتى .

رد عليه (الزين) :

ـــ لقد جعل منا فارسين حقيقيين ورعانا جيدًا .

ـــ إن أمثاله يستحقون الخلود ، ليظل الجانب الطيب من الحياة أقوى من الخبيث .

ـــ على مر الزمن كان هناك وسيكون من أمثاله الكثيرون .. أنت أحدهم .

لم تمض ساعة بعد الحوار حتى دق الباب مرة أخرى ، فقام (على) ليرى الطارق فبدا له وجه الحاجب ، وقبل أن يفتح الحاجب فمه صاح (على) بـ (الزين) :

ـــ إن الأمر جد خطير يا (زين) .

* * *

وقف (الزين) و (علىّ التوحيدى) إلى جانبى الشيخ (عبد الحميد) الجالس فى ديوان القصر الملكى ، أمام قائد جيوش الغرب ومساعده ووزير الدولة .. سألهما الملك :

Looloo www.dvd4arab.com

ـــ ماذا تعرفان عن ذوى الملابس الخضراء ؟

نقّلا بصرهما إلى بعضهما ، ثم إلى الشيخ (عبد الحميد) قبل أن يبدأ (علىّ) بالكلام قائلاً :

ـــ إنهم قاطعو طرق ولصوص متمرسون ويقال إنهم يهود ، إذ إنهم لا يجازفون بأنفسهم فى سرقة إلا بعد دراسة جيدة ومعرفة لكل التفاصيل التى من شأنها إنجاح خططهم .. هم شديدو البأس يرأسهم قائد جيش سابق ليس من بلادنا يُدعى (سانتور) السفاح .

ـــ هل أنت من تغلّب عليهم منذ أيام قليلة خارج حدود المدينة ؟

ـــ إنه (الزين) قد عاونى فى هذا الأمر .. ولولاه لقُضِىَ علىّ ، فعددهم كان كبيرًا يا مولاى .

ـــ ولماذا يرتدون الزى الأخضر تحديدًا ؟

ـــ هو زى موحّد ليعرف بعضهم بعضًا ، وأغلب الظن أنهم يرتدونه ليسهل عليهم التخفى وسط الأشجار وبين الأعشاب ، خاصة وأن هذه الملابس تتميز بلون الرمال من الجانب الآخر .

ـــ وكيف لك ولصديقك التغلب على رجال أشداء كهؤلاء ؟

أجاب (الزين) هذه المرة :

ـــ صداقتك القديمة للشيخ (عبد الحميد) يا مولاى تسهل الإجابة ، فهو أشجع فرسان البلاط الملكى فى العهد السابق ، وقد رعانا منذ صغرنا فلم نعرف لنا أبًا غيره ، وهو من علّمنا العديد من مهارات القتال والمراوغة .

ـــ هل أنتما يتيمان ؟

قال الشيخ (عبد الحميد) مقاطعًا :

ـــ فلنناقش أمرهما فيما بعد يا مولاى كى لا نؤخر ضيوفنا أكثر من هذا .

استدار الملك إلى قائد جيوش الغرب قائلاً :

ـــ إنهم سيبيتون عندنا الليلة إن شاءوا ضيوفًا مكرمين ، ولهم الحق فى الرحيل وقتما أرادوا .

قـــال القائد :

ـــ نشكر لك كرمك يا جلالة الملك ..لكن الإمبراطور بلا شك يتحرق لمعرفة تطورات الأحداث ، ولابد من نقل الصـــورة الجديدة له حتى يهدأ باله ويأمن على الوطن من ناحيتكم .

ـــ لا بأس يا قائد الجيوش ، وهذه الدعوة متاحة لكم فى أى وقت .. بلغ تحياتى للإمبراطور .

انحنى قائد الجيوش ومساعده تحيـــة للملك ، ثم انصرفا من الديوان ، فعاد الملك للشيخ (عبد الحميد) يسأله :

ـــ ما حكاية هذين الشابين يا (عبد الحميد) ؟ كيف لم أسمع بهما من قبل ؟

ـــ فليسمح لهما مولاى بالجلوس أولاً .

أشار الملك لهما بيده ، فجلسا جوار الشيخ الذى تابع وهو يضع كفه على كتف (على) :

ـــ إن (على) ابن قريب لى توفى وزوجته بعد إنجابه بشهور قليلة .. فرعيته كما لو أنه ابنى أنا ، وأنت على دراية يا مولاى بأنى لم أرتبط بعد وفاة زوجتى .

www.dvd4arab.com

أومأ الملك بينما أطرق (على) برأسه ، وأكمل الشيخ :

ـــ أما (الزين) فكان بين الجبال أثناء تفقدى ذات مرة الجانب الشرقى للمدينة ، يوم كنتُ كبير فرسان القصر يا مولاى .. كان وجهه مليحًا فأطلقت عليه (الزين) ، ولما لم أعرف له أهلاً فدعوته بـــ (ابن الجبال) .. الجبال التى احتضنته حتى وجدته .

توقف الشيخ قليلاً عن الحديث يلتقط أنفاسه ، وأمر الملك بالماء والفاكهة وبعض من شراب الفاكهة لكل الحاضرين .. كان الوزير صامتًا كعادته يتابع ما يقال .. وما إن شرب الشيخ بعض الماء حتى شرع فى إكمال حكايته :

ـــ ربيتهما قدر ما استطعت ، وعلمتهما القراءة والفروسية وإمساك السيف .. لاحظت نبوغهما واستيعابهما السريع ، وإن تفوق (الزين) أحيانًا على (على) فى بعض الأمور .

ابتسم (الزين) وهو يلقى بنظرة سريعة لـــ (على) الذى شعر بها فلم يُدر وجهه ناحية رفيقه ، والشيخ يكمل مستطردًا :

ـــ لم أخبرك بأمرهما يا مولاى خشـــية أن تظن فى نيتى غرضًا ما بشأنى أو شأنهما ، فأنا لا أحب إثارة الشكوك .

ـــ إننا أصدقاء قدامى يا رجل ، كيف يمكن أن أسىء الظن بك ؟!

ـــ لقد كانت هذه الأحداث فى بداية تعارفنا يا مولاى .

ـــ يا إلهى ، هل هما بهذا القدر من العمر ؟

ـــ نعم يا مولاى إنهما يشرفان على عامهما الثلاثين رغم عدم وضوح هذا على وجههما .. وأحيانًا لا يظهر على تصرفاتهما أيضًا .

قالها وهو يدير بصره بينهما فأطرقا خجلاً ، بينما دخل الحاجب يهمس فى أذن الملك بشىء فقال الملك :

ـــ دعها تدخل ، فهذا وقتُ تناول العشاء .

وأمر بتحضير المائدة .

* * *

سار الشيخ (عبد الحميد) مع (على) و(الزين) عائدين إلى داره ، فسأله (على) قائلاً :

ـــ ماذا حدث فى القصر يا شيخ ؟ وما الأمر ؟ ولماذا استدعوك واستدعونا ؟

ـــ مؤامرة يا ولدى .. (سانتور) يدبر شيئًا عظيمًا .

سأله (الزين) بقلق :

ـــ ماذا هناك يا شيخ ؟

ـــ الغرب كانوا هنا اليوم لغزو بلادنا ، بعد أن وصلتهم أخبار عن نيتنا فى غزوهم .

ـــ كيف هذا ؟ إن الملك يستحيل أن يقرر شيئًا كهذا أبدًا .

ـــ هذا صحيح يا (على) ، لكن (سانتور) أرسل رجاله لسرقة كتبى التاريخية وخرائطى ، ثم بعث بها إلى إمبراطور الغرب يحذرهم من تخطيطنا لغزوهم ، كانت الخرائط والكتب دليلهم على هذا .

ـــ ولكن لم نجد مع اللصوص شيئًا يا شيخ !!!

Looloo
www.dvd4arab.com

تفكر الشيخ قليلاً ، ثم قال :

ـــ الآن فهمتُ خطتهم يا (زين) ، لقد حملها أحدهم وفر ، ثم تستر عليه الآخرون بالاستسلام للجيران كى يلهوهم عن وجود آخر معهم حتى يبتعد بالقدر الكافى ، ويصبح فى أمان .

ـــ خطة ماهرة .. وفيم كانت الخرائط والكتب منذ البداية يا شيخ ؟

ـــ يا ولـــدى ، إن الكتب تذكُر تاريخ الحـــروب فى بلادنا والبلاد الأخرى وما آلت إليه هذه البلاد ، كما تذكُر أنماطًا من الخطط الحربية التى استخدمها القادة وقتها .. أما الخرائط فبعضها قديم يوضح ما كانت عليه الدول قبل الحروب وبعدها من زيادة أو نقصان فى مساحتها وحدودها ، هذا ما استخدمه رجال السفاح ضد الملك .. أنا أحصر هذه الأشياء وأحسن صياغتها ليستفيد منها البشر بعد أن أفرغ منها ، فربما يحجمون عن صراعاتهم وتندر الحروب .

ـــ كيف عرفوا بوجود هذه الأشياء وبمكانها يا شيخ ؟

ـــ لا أدرى يا (زين) .. حقًا لا أدرى .

وصلا منزل الشيخ (عبد الحميد) الذى دخل منهكًا من عناء اليوم ، وعقلا الفارسين يبحثان عن إجابة للسؤال الذى طرحه (الزين) ، وكان (الزين) يسترجع الأحداث الأخيرة فى قصر الملك ، العشاء وابنة الملك التى شاركتهم فيه .. دقات قلبه المتسارعة .. عدم تركيزه فى الحوارات التى كانت على المائدة ، كان يحاول تحديد مشاعره تجاه كل هذه الأمور .

* * *

كانت جياد الغرب تتجه إلى بلادها فى رحلة تستغرق يومين ، ويتوسط الجنود قائدهم ومساعده الذى سأل :

ـــ هل تظنهم حَسَنِى النية حقًا أيها القائد ؟

ـــ نعم ، لكن هذا لا يعنى أن نأمن جانبهم تمامًا .. علينا الحذر دومًا حتى تثبت الأمور على حالها .

ـــ لماذا إذن لم نقم بمهمتنا الرئيسية ؟ كان بإمكاننا سحقهم بسهولة .

ـــ الحرب ليست الوسيلة الأولى فى مواجهة الخطر .. ولا تنس جنودنا الذين سيصابون ويموتون من جراء معركة يمكن تلافيها ، بما فيهم أنا وأنت .

ـــ أنا لا آبه بما يصيبنى فى سبيل البلاد والإمبراطور .

ـــ الشـــجاعة لا تعنى الحمـــاقة .. سنخبر الإمبراطور بكل ما حدث وأضيف رأيى الخاص ، وله حرية التصرف كما يشاء .. عد إلى المقدمة الآن ، هيا .

ونفذ المساعد أمر قائده ..

* * *

وصـــل (الزين) داره وبدّل ملابسه ، ثم جلس على الفراش يتذكر دهشته لرؤية الأميرة تدخل عليهم بملابسها الأنيقة التى لا تقارن بتلك يوم رآها فى السوق مع وصيفتها .. نظراتها الأخيرة له من خلف الغبار الكثيف وهو منطلق بجواده .. نظراتها له على مائدة الطعام .. ملامحها التى عاهد نفسه بتفرُّسها والتدقيق فيها ليحفظها فى عقله .. بل فى قلبه .. « كم هى جميلة ! »

واستمر فى خواطره حتى نام .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

٣ ـ الرحلة ..

فتح (علىّ التوحيدى) باب منزله بعد الطرقات المميزة لـ (الزين) وهو يقول متثائبًا :

ـ مبكر أنت اليوم يا (زين) ، خيرًا ؟

ـ أرسل الملك فى طلبى ، تعال معى .

تنبه (على) وزال عنه الخمول ، وهو يقول :

ـ سآتى معك حتى القصر ولكننى لن أدلف إليه .

ـ ولِمَ ؟

ـ هل ذكر الملك اسمى فى استدعائه لك ؟

ـ كـلا .

ـ إذن سأكون بانتظارك خارج القصر ، فإن احتجتنى تجدنى قريبًا .

ـ لا بأس .. هيا بنا .

سارا معًا يحاولان استنتاج سبب الاستدعاء حتى وصلا بوابة القصر ، فدخل (الزين) وبقى (على) .

رحب الملك بـ (الزين) الذى لم يلمح الشيخ (عبد الحميد) فى المكان المقتصر على الملك والوزير ، بعد خروج الحاجب الذى أوصله .. قال الملك :

ـ لا تقلق يا (زين) فالشيخ (عبد الحميد) لا يستيقظ مبكرًا هكذا ..

ضحك الملك قليلاً ، ثم استطرد :

ـ لقد جالت بخاطرى فكرة أرقتنى طوال الليل ، فلم أطق صبرًا حتى أخبرك بها ، كما لم أشأ إزعاج الشيخ فى هذا الوقت المبكر وهو ـ دون شك ـ سيعلم بما دار هنا فيما بعد .

ظل (الزين) ما بين ابتسامة وصمت والملك يكمل كلامه :

ـ هل تعرف كم أبلغ من العمر يا (زين) ؟

ـ أطال الله بقاءك يا مولاى ، أظن جلالتك على مشارف السبعين .

ضحك الملك وهو يقول :

ـ نظرة ثاقبة يا فتى ، رغم أننى أبدو أصغر سنًّا لكوني فارسًا سابقًا اشتعلتُ طاقة وقوة فى شبابى .

مرت لحظات صمت فى الديوان وبدا الملك كأنما يفكر أو يتذكر شيئًا ، ثم سأل :

ـ ماذا لو حكمتَ البلاد يومًا واحدًا يا (زين) ؟ هل تقدر ؟

بدا التعجب على وجه (الزين) قبل أن يقول بصوت يشوبه التوتر :

ـ لا يوجد من يقدر على فعل شىء فى حكم يـوم واحد يا مولاى ، لكن أظننى سأتابع حفظ أمنها فى هذا اليوم .

ابتسم الملك معجبًا بالرد ، ثم قال :

ـ وماذا لو حكمت البلاد شهرًا ؟

ـ سأحاول الحفاظ على أمنها يا سيدى .

دقيق هذا الشاب فى انتقاء كلماته ، « سأتابع » ثم « سأحاول » ، هكذا

Looloo www.dvd4arab.com

خطر للوزير بينما استمر الملك فى سؤال (الزين) :

ـــ ماذا لو أنك حكمت البلاد عامًا ؟

صمت (الزين) برهة متطلعًا إلى الملك محاولاً سبر أغوار عقله لمعرفة ما يدور فيه ، ثم قال :

ـــ أظن هناك من هم أكثر كفاءة منى لحكم البلاد طيلة هذه الفترة يا جلالة الملك .

قهقه الملك وابتسم الوزير الصامت ، فابتسم (الزين) بدوره مجاراة للموقف ، كل هذا وهو واقف أمام كرسى العرش الذى قام الملك من عليه متوجهًا (للزين) يربت على كتفه :

ـــ وزير الدولة والشيخ (عبد الحميد) قد طعنا فى السن يا (زين) ، صحيح أنهما يملكان الحكمة والخُلق ، لكن تنقصهما القوة .. وأنت شاب فارس ، لكن تنقصك الخبرة فى أمور كثيرة .

عاد الملك للعرش يجلس عليه وهو يقول بحزم :

ـــ هل تقبل حكم البلاد من بعدى يا (زين) ؟

اتسعت عينا (الزين) وفغر فاه ، ثم تدارك نفسه سريعًا من وضع ملامحه هذا ، وتابع دخول الحاجب يهمس فى أذن الملك بشىء ، فأمره الملك :

ـــ أدخلهـــا .

أحنى الحاجب رأسه وخرج من القاعة لتدخل الأميرة (سولى) بزى يتناسب مع أناقة أميرة ، ووجه مبهج يشع بابتسامة بسيطة ، وهى تتجه بخطوات رشيقة إلى كرسى العرش لتقبّل والدها محيية :

ـــ عمت صباحًا يا جلالة الملك .

ـــ عمت بالخير يا بنيتى .

انتقلت ببصرها إلى الوزير :

ـــ عمت صباحًا يا وزير الدولة .

قال الوزير بصوت رزين :

ـــ عمت صباحًا يا أميرة البلاد .

جلست بجوار والدها وهى تنظر إلى (الزين) مبتسمة تسأله :

ـــ خيرًا أيها الفارس ، هل لك مظلمة لدى الحاكم ؟

ـــ بل أنا هنا بناء على طلب مولاى الملك أيتها الأميرة .

قال الملك :

ـــ تابعى حوارنا فى هدوء وستعرفين كل شىء .

أومأت برأسها متفهمة وابتسامتها لا تفارق شفتيها ، ثم أدار الملك وجهه ناحية (الزين) مرة أخرى وقال :

ـــ لم تُجب على سؤالى بعد يا (زين ابن الجبال) .

لم يفهم (الزين) سبب تلقيب الملك له بـــ (ابن الجبال) فى هذا الموقف ، لكنه تجاهل هذه النقطة قائلاً :

ـــ هذا شرف عظيم يا مولاى ، ولكنها مسئولية عسيرة لا أظننى على كفاءة لتحملها .

ـــ ستمتلك هذه الكفاءة يا (زين) .. ستمتلكها قريبًا لو أنك قبلت

Looloo www.dvd4arab.com

تنفيذ ما سأطلبه منك ، وستكون عاقبتك خيرًا بإذن الله .

صمت (الزين) برهة لاستيعاب الأمر ، ثم بحث عن رد مناسب فلم يجد من توتره سوى :

ـــ أنا فى خدمة البلاد .. وفى خدمة مولاى الملك .

ـــ اسمع يا (زين) .. اسمعنى جيدًا فما سأطلبه منك عسير ، ولكننى أثق فى قدرتك على تنفيذه .

ثم أخذ الملك يحدث (الزين) الذى كانت عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا ، وعقله يتشتت بين أمور عديدة متغيرة .. وازداد توتره حتى شعر برجفة لم يلمحها الملك .. أو ربما تجاهلها ، لأنه كان مستمرًّا فى حديثه دون توقف .

* * *

« ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغنى .. »

قالها (الزين) فسأله الشيخ (عبد الحميد) مندهشًا :

ـــ ماذا تقول يا (زين) ؟

ـــ هذه أوامر الملك كى أتولى الحكم من بعده .

ـــ الحكم هل ستكون الملك يا (زين) ؟

ـــ هكذا أمرنى الملك يا شيخ ، ماذا أفعل ؟

همس الشيخ كأنما يحادث نفسه :

ـــ ليس له وريث .

ـــ لكن له وريثة .

ـــ وهو يود إعداد من يتولى مُلك البلاد من بعده ، أنت تعرف أن النساء لا تصلح لهذه الأمور .

أخذ الشيخ (عبد الحميد) يفكر قليلاً و(الزين) جالس أمامه ينظر إليه حتى قال :

ـــ أهذا فقط كل ما أخبرك به الملك ؟

ـــ نعم ، وسمح لى باصطحاب من أشاء معى فى رحلتى هذه .. وأنا أستأذنك فى صحبتى .

ـــ وحدنا ؟

ـــ و(على) بالطبع .

ـــ هل أخبرته ؟

ـــ نعم .. لكن أخبرنى رأيك .

صمت الشيخ قليلاً وهو ينظر فى عينى (الزين) ، ثم قال :

ـــ على بركة الله ، متى ستنطلق فى رحلتك العجيبة هذه ؟

ـــ طلب الملك أن أحدد وقتًا وأمثُل بين يديه قبيل خروجى من البلاد .

ـــ اختر وقتًا مناسبًا مع (علىّ) ثم أخبرانى بما تقررانه .

ـــ أمرك يا شيخ .. إلى اللقاء .

ـــ صحبتك السلامة يا (زين) ..

Looloo
www.dvd4arab.com

ملأ ليل ما قبيل الفجر سماء البلاد عندما دلف الشيخ (عبد الحميد) مع (الزين ابن الجبال) و(علىّ التوحيدى) قصر الملك (شاكسير) طالبين إيقاظه من نومه للمثول بين يديه ، ولما خرج لهم الملك مرحبًا بكلمات يشوبها النعاس ، تكلم (الزين) :

ـــ سنترك البلاد الآن يا مولاى لبدء رحلتنا .

ـــ أحسنت باصطحابك الشيخ (عبد الحميد) يا (زين) .. و(علىّ) كذلك ، نعم الصحبة لك .

ابتسم (الزين) ، وهو يقول :

ـــ الشكر للشيخ فى موافقته صحبتى ، أما (علىّ) فلا خيار له يا مولاى .

ابتسم الجميع والملك يصافحهم متمنيًا لهم التوفيق ، قبل أن يتبادل مع الشيخ (عبد الحميد) نظرة طويلة بلا كلمة واحدة .. ثم خرج الجميع .

امتطى كل منهم جوادًا ومعهم فرس تحمل زادهم وسلاحهم ، ثم سأل (علىّ) :

ـــ سنتجه شمالاً أم جنوبًا يا (زين) ؟

ـــ أرض المغول القديمة بالشرق فيها من الظلم ما أظنه يكفى حاجتنا منه ، فلنتجه إليها .. ما رأيك يا شيخنا ؟

ـــ أنت القائد يا (زين) فتعلّم أن تتخذ القرار بعد المشورة لا قبلها ، وأن باتخاذك القرار فلا رجعة .

احمر وجه (الزين) فعاجله الشيخ قائلاً :

ـــ لا تخجل يا (زين) أنت فى هذه الرحلة لتتعلم ، ولا يخجل المرء من كونه تلميذًا قط .

ثم ابتسم الشيخ وهو يكمل :

ـــ إلى الشرق يا (زين) .. على بركة الله .

ولكز جواده باتجاه الشرق ، بينما ضوء الفجر يبدأ فى الانتشار .

* * *

دخل قائد جيوش الغرب مدينته ، بعد توزيع جنوده خارجها لتسليم جيادهم وأسلحتهم لزملائهم قبل الذهاب للراحة من عناء السفر ، ولاحظ أول ما لاحظ تجهم الناس فى الطرقات ، ورغم هذا لم يتباطأ لحظة فى طريقه إلى قصر الإمبراطور .. وما إن ترك فرسه عند الباب العملاق للقصر ودخل محدثًا الحاجب حتى عرف أن الحاكم توفى فجأة منذ سويعات قليلة ، وتقلد ابنه تاج الإمبراطورية وجلس على العرش .. كان عناء السفر مع الخبر الجديد كافيين ليجلس القائد على الأرض أمام الحاجب يقاوم دمعة تصر على السقوط من عينيه .

ظل الحاجب صامتًا حتى استعاد قائد الجيوش نفسه ، وطلب إذن الدخول على الإمبراطور الجديد ، وما كاد يؤذن له حتى دلف وبادر بقوله :

ـــ العزاء للإمبراطور ، والمباركة له .

كان يقف بجوار الإمبراطور شخص عرف فيه صديق جلالته من الصغر ، بينما أشار الإمبراطور بيده إشارة ليست ذات معنى وهو يعلو بدقنه المدببة ويميل برأسه ، ثم يقول :

ـــ مرحبًا بك يا قائد الجيوش .. هل انتهيت من معركتك سريعًا هكذا ؟

ـــ لم تكن هناك أية معارك يا مولاى ، فالأمر يحوى بعض سوء الفهم .

Looloo

أخـذ يسرد ما دار فى قصر ملك الشرق وأضاف رأيه الخاص فى النهاية ، بعدها تجهم الإمبراطور قليلاً قبل أن يميل عليه صديقه ويهمس بشىء جعل الإمبراطور يقول :

ـــ يقترح وزيرنا أن نُخرس ألسنة الشعب بالاستيلاء على مملكة الشرق التى تنوى غزونا ، وفى هذا تثبيت لحكمى الجديد وإبراز لإمكاناتى يا قائد الجيوش ، فهل تقدر ؟

اضطرب قائد الجيوش ، ليس فقط لرغبة الإمبراطور فى تدمير بلاد الشرق وإنما لأنه وصديقه سيكونان ـ بهذا الأسلوب فى التفكير ـ وبالاً على بلاده نفسها .. تظاهر بالتفكير قليلاً قبل أن يقول :

ـــ هل يأذن لى سيدى بالراحة لأجيد التفكير واتخاذ القرار الذى يحظى بتأييدكم ؟

نظر الإمبراطور لوزيره الذى أومأ برأسه فسمح لقائد الجيوش بما طلب ، وانصرف من توه .

* * *

طيور تحلق تحت السحاب الغابر ، (الزين) فى رحلته مع رفيقيه حتى جن الظلام وهم على مقربة من بعض الجبال المنتشرة ، قال الشيخ :

ـــ فلنبحث عن كهف مناسب فى أى من هذه الجبال نقضى فيه الليل يا (علىّ) .

ـــ حسن يا شيخ .

قال (الزين) :

ـــ سأتجه نحو هذا الجبل يا (علىّ) أتفحصه ، وانظر أنت فى ذلك الآخر .

قالها وهو يشير بيده ناحية ما يقصد بكلامه ، ثم انطلق إلى حيث اختار لنفسه واتجه صديقه إلى حيث كُلف ، بينما انتظر الشيخ (عبد الحميد) مع الفرس يتابعهما بنظره إلى أن صاح (علىّ) :

ـــ هنا يا (زين) .. يوجد كهف مناسب هنا .

اتجه الشيخ و(زين) ناحية الصوت حتى وصلا إليه ، فوضعا أمتعتهما وجلس الجميع على الأرض .

ـــ أما زال أمامنا الكثير يا شيخ حتى نصل لوجهتنا ؟

أخرج الشـــيخ (عبد الحميد) خرائطه ينظر فيها على ضـــوء مشعل جهزه (على) ، ثم رد على (الزين) :

ـــ المســـافة بين بلادنا وبينهم من هـــذا الطريق مسيرة أربعـــة أيـــام يا (زين) .. لا تزال أمامنا ثلاثة إذن .

ـــ أرجو ألا ترهقك الرحلة يا شيخ (عبد الحميد) .

ابتسم الشيخ ، وهو يقول :

ـــ لا تظن أن عظامى ولحمى يتهالكان سريعًا يا ولدى ، فقد أخذا حظهما من الرعاية فى نشأتى كى يتجلدا معى فيما أنا عليه الآن .

فجأة انتفض (على) وقام يركض إلى خارج الكهف ساحبًا سيفه فتبعه بتلقائية كل من (الزين) مسرعًا والشيخ (عبد الحميد) ليجداه ممسكًا بتلابيب شخص غريب بينما يركض آخر مبتعدًا فلحقه (الزين) عبر الصخور الوعرة وأدخلاهما الكهف .. وقف (الزين) أمامهما وهما

Looloo

ملقيان أرضًا بينما خرج (علىّ) يبحث عن البعير التى نقلتهما ليضمها إلى جيادهم ، ولما عاد إلى الكهف كان أحدهما يقول كأنما يجيب على سؤال وُجه إليه :

ـــ أنا (زعيتر) .. أرجوكم لا تؤذونا .

* * *

٤ ـ سانتور السفاح ..

خرج قائد جيوش الغرب مبكرًا بزيه الحربى متجهًا إلى دار أحد أصدقائه ، دق الباب ودخل عندما فُتح له ، وبعد التحيات المتبادلة سأل صاحبه :

ـــ ماذا يقول الناس فى موت الإمبراطور وتقلد ابنه الحكم ؟

أجابه الصديق بسخرية :

ـــ ألا تعلم ما يقولون يا قائد الجيوش ؟

فهم قائد الجيوش تلميح صاحبه فرد بعنف :

ـــ طوال الوقت وأنا خارج الحدود لحفظ أمن البلاد ، أو فى قصر الإمبراطور لتلقى الأوامر .. أى إننى لا أتكبر على الشعب بابتعادى عنهم وعدم معرفتى بما يدور بينهم يا ... يا صديقى .

ـــ لا بأس يا قائد الجيوش ، ولكن ما سأخبرك به لم يصل للإمبراطور قط .. وأنا على دراية بهذا .

ظل قائد الجيوش على صمته ، وهو يتابع الكلمات تخرج من بين شفتى صاحبه الذى مال عليه واستطرد كأنما يهمس :

ـــ يقولون إن الولد قتل أباه ليحل محله .. وضع له سُمًّا أحضره له صاحبه فى الدواء الذى كان يتعاطاه الإمبراطور ، بعدما أصابته وعكة أرقدته يومين .. صاحبه هذا أصبح وزيرًا للبلاد .

ـــ وهل اشترك الطبيب فى هذه المؤامرة ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

اعتدل صديقه وهو يقول بنبرة صوته التقليدية :

ـــ لا نظن .. ولا ننفى هذا أيضًا ، الشك يحوم حول الابن أكثر من غيره ، والذى هو صاحب المصلحة الأولى فى قتل أبيه لتولى الحكم بعده .

ـــ أى إنه لا إثبات للتهمة على الولد .

ـــ وهل يمكن لأى فرد إثبات تهمة على حاكم يا قائد الجيوش ؟!

قالها بسخرية قام بعدها القائد غاضبًا يتجه نحو الباب ، وهو يقول :

ـــ الأيام ستثبت كل شىء يا صاحبى .. فليتحدث الناس بما يشاءون ، ولكن ما دامت الحقيقة لم تظهر فأنا مطيع لأوامر الإمبراطور الجديد .. إلى اللقاء .

خرج وصوت صديقه يعلو قائلاً :

ـــ لا نار بدون شرر يا قائد الجيوش .. حظًا سعيدًا .

* * *

بعد مسيرة ثلثى النهار وجد (الزين) نفسه ورفيقيه أمام بوابة مفتوحة لمدينة تدب الحياة داخل أسوارها ويعلو فيها الضجيج ، أخرج الشيخ (عبد الحميد) خرائطه ينظر فيها قبل أن يقول متعجبًا :

ـــ لا وجود لهذا المكان على أية خريطة .. لا شك أنها حديثة جدًا ، وربما منذ عامين أو أقل .

ـــ هذا غريب .. فلندخلها ونختبر كرم أهلها ، قد نحتاج للمبيت عندهم .

دلفوا من البوابة دون أن يلفت انتباه أى من أهل المدينة دخول أغراب

عليهم ، وكانت هذه ملحوظة أبداها (الزين) لصاحبيه .. استمروا فى سيرهم بتمهل حتى وجدوا جماعة من الناس ملتفين حول شىء ما ، نزل (الزين) عن جواده واتجه يخترق الجمع ليجد شابة مليحة الوجه طويلة الشعر جالسة على وسادة .. ناثرة من حولها أصدافًا وأشياء أخرى لم يتبينها (الزين) ، استنتج من أحاديث المحيطين به أنها تقرأ لهم الطالع ، ابتسم مستهزئًا من سذاجتهم ورجع ليحكى ما رآه للشيخ (عبد الحميد) و(على التوحيدى) الذى علق بقوله :

ـــ عرافة ؟ أما زال هناك من يؤمن بمثل هذه الخرافات ؟!

ـــ من الذى يتحدث عن الخرافات هنا ؟؟

قالها كهل عابر بصوت رخيم ، فاتجهت أبصار الثلاثة إليه قبل أن يقول الشيخ وهو يشير بيده ناحية العرافة :

ـــ أهل هذه المدينة يلتفون حول عرافة تجهل الغيب .

ابتسم الرجل العجوز المتكئ على عصاه دون أن ينظر ناحية ما أشار إليه الشيخ ، ثم قال :

ـــ هذه أهون الأحداث بالنسبة للأغراب أمثالكم ، وقد اعتدنا مثل ردة الفعل هذه على مر السنين .

ـــ السنين ؟!

قالها (على) و(الزين) بصوت واحد ودرجة دهشة واحدة ، وهم ينظرون إلى ردة فعل الشيخ (عبد الحميد) الذى سأل :

ـــ أية سنين تلك التى تتحدث عنها ؟ هذه المدينة لم تكن هنا قبل عامين أو أقل .

www.dvd4arab.com

ظل العجوز على ابتسامته وهدوئه :

ـــ ما الذى عبر بكم من هذا الطريق ؟ إن قلائل فقط يعرفونه ، وهناك من يتوهون فيسلكونه .

أجابه الشيخ وقد أدرك تجاهل الكهل إجابة السؤال :

ـــ لقد سلكتُ هذا الطريق منذ فترة ليست بطويلة ، وسجلته فى خريطتى هذه .

وأبرز له الخريطة فتناولها الرجل ونظر ، ثم قلبها بين يديه ، وقال بعدها :

ـــ لا أفهم هذه الخطوط ولا المصطلح الذى استخدمته ، لكن على أية حال نحن هنا منذ آلاف السنين .. هكذا يقول تاريخنا ، وما خرجنا من هذه المدينة قط .

ازدادت الدهشة خاصة على وجه الشيخ (عبد الحميد) ، بينما (الزين) يتطلع كل فينة إلى الحشد الملتف حول العرافة ، ثم قال الشيخ بعد أن نزل عن جواده :

ـــ ما اسم هذه المدينة ؟ وأى حاكم تتبع ؟

ـــ إنها مدينة الأساطير .. ويحكمها تاريخنا أيها الشيخ الغريب .

وازداد تعجبهم إلى أقصى حـــد .

* * *

ـــ منذ متى تتبعوننا ؟ وما الذى دفعكم لذلك ؟

هكذا سأل (علىّ) (زعيتر) فى الكهف ، أخذ (زعيتر) يدور بعينيه فى وجوههم قبل أن يجيب :

ـــ نتبعكم منذ تخطيتم الجبال على حدود بلادكم ، بأمر من (سانتور) العظيم .

ـــ الســـفاح ؟!!

قالها (الزين) بدهشة فالتفت إليه (زعيتر) وقال بإصرار :

ـــ بل (سانتور) العظيم أيها الشاب الفتىّ .

سأله الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ ولماذا يرغب (سانتور) فى معرفة وجهتنا ؟ ثم لماذا تطيعونه وتعرضون أنفسكم لمثل هذا الموقف ؟

ـــ أمرنا سيدى (سانتور) بتتبعكم ومعرفة أين تستقرون ، ثم نعود لنخبره أو نرسل إليه برسالة لو زادت مدة تتبعنا لكم على ثلاثة أيام .

قالها (زعيتر) للشيخ الذى أكمل حواره سائلاً :

ـــ لماذا تطيعونه وأنتم تعلمون الخطر الذى ربمـــا يقابلكم ؟

ـــ لا أحد يرفض أمرًا لسيدى (سانتور) ، كما أننا نجيد مثل هذه الأمور أيها الشيخ العجوز ، وهذا عملنا .

شعر (الزين) بشىء من الثقة يعود لنفس الأسيرين ، فأخرج سيفه ولوح به أمام وجهيهما وهو يسأل ساخرًا :

ـــ وماذا تجيدون أيضًا غير التتبع يا هذا ؟

أفلحت لعبته فى زعزعة تماسك الرجلين ، ثم قال (زعيتر) :

ـــ نحن مقتفيا أثر ، ويجب ألا يلحظ تتبعنا أحد ، لولا هذا الغبى أسقط حصاة صغيرة ما كان لها أن تلفت انتباهكم أبدًا .

www.dvd4arab.com

أخرج (على) سيفه بدوره وهو يلوح به أمام الآخر .

ــ وهل هذا (الغبى) أخرس يا ترى ؟

ــ بل أستطيع التحدث أيها الرشيق .. وقتما تريد .

قالها بجبن واضح ، ثم قرر (الزين) تقييدهما وحجزهما بين الصخور خارج الكهف لبعض الوقت ، وعاد ليتناقشوا فى أمرهما .. قال الشيخ :

ــ لم أنتبه ولا (الزين) للحصاة التى وشت بوجودهما يا (على) .

ــ بل هى رائحتهما يا شيخ ، الأبلهان يستخدمان عطرًا برائحة الورود ربما للتضليل ، وأنت كما لاحظت لا وجــود لورود حول هذا الكهف .

ــ هل رأيت ما نادوا به كلاً منا يا شيخ ؟

قالها (الزين) باهتمام فأجابه الشيخ :

ــ ربما لا يعرفان أسماءنا فلقبونا بأبرز صفاتنا التى بدت لهم .

ــ وصفانى بالرشيق .

قالها (على) وهو ينظر بجانب عينيه لــ (الزين) ، فابتسم الشيخ ، ثم قال :

ــ ما يقلقنا الآن هو سرقة (سانتور) لمخطوطاتى من قبل ، ثم يرسل من يتتبعنا .. فى نفس هذا المجرم شىء لابد من معرفته .

ــ يمكننا إجبار تابعيه على كشف ما ينتويه .

ــ لا يعرفان شيئًا مما يجول بنفسه يا (زين) ، إن أمثاله لا يأمنون غير أنفسهم على أسرارهم .

ــ ماذا نصنع بهما إذن يا شيخ ؟

فكر الشيخ (عبد الحميد) قليلاً ، ثم قال :

ــ أحضرهما يا (على) .

خرج (على) ليجدهما مقيدين يدوران بأعينهما فى وجوه الجميع ، فبدا الهدوء على وجه الشيخ ورسم (الزين) الغضب على ملامحه بينما اصطنع (على) السخرية فأقلقتهما هذه التعبيرات مما بث شيئًا من الفزع فى داخليهما :

ــ ماذا تعرفان عن (سانتور) ؟ ومنذ متى تعملان تحت إمرته ؟

ظل الرجلان على صمتهما قبل أن يمسك (على) سيفه المغمد ، وهو يقول لرفيق (زعيتر) :

ــ لابد أنك عدت للبكامة مرة أخرى يا هذا .

أجاب الرجل بسرعة ورعب :

ــ إننا معه منذ أعوام أيها الرشيق ، هو قائد سابق لجيش أحد البلاد التى لا نعرفها ، وعُرف عنه القوة والبأس فى قيادة جنوده والحنكة فى كسب المعارك والقسوة فى كل تعامله مع الصديق والعدو .

ــ إن ما تقوله خطير .. ماذا رأيت من أفعاله تدلل به على ما قلت ؟

ــ حُكى أنه كان يومًا فى طريقه بطول النهر وسيوف جنوده مشهرة ليقتحم مدينة متمردة على سلطانها ، فكُلف (سانتور) العظيم بالسيطرة على أهلها وردعهم عن تمردهم ، وكان مما أمر أن يمتنع جنوده عن الشرب من ماء النهر أو الأكل من الزرع المنتشر على ضفته ، وتوعد من

Looloo www.dvd4arab.com

يخالف أمره بالقتل ولو بعد عشر سنين .. ولما طال الوقت كان قد انتاب الجنود شعور بالإنهاك يتسلل إلى أجسادهم وبالجوع والعطش يقلص أمعاءهم .. فسولت لأحدهم نفسه أن يخالف الأمر وكان فى الصف الأخير من المسيرة ، فتباطأ قليلاً واغترف بيده شربة ماء ، ثم اغترف واحدة أخرى لم تروه لكنه تصبر بها على الجوع والعطش .

صمت الرجل قليلاً يلتقط أنفاسه وهو ينظر إلى (زعيتر) ، ثم إلى الشيخ والآخرين ، وبعدها أكمل بينما (على) يتنقل بين مدخل الكهف وداخله كأنما يراقب المكان .

* * *

قبل أسوار المدينة توقف (سانتور) ليرسل برجلين يدوران حول السور لاستطلاع المكان ، ولما أتما مهمتهما ، نادى الرجل الذى اغترف من ماء النهر ، فتقدم الرجل مترجلاً ليمثُل أمامه ، سأله (سانتور) :

ــ هل ترغب فى أن تكون بطلاً يفخر به السلطان ؟

أجاب الرجل بفخر :

ــ نعم يا قائد الجيوش .

ابتسم (سانتور) بخبث لم يلحظه الجندى ، وقال :

ــ افتح بوابة المدينة لندخل .

سأله الجندى بذعر :

ــ كيف يا سيدى ؟

أجابه (سانتور) بشراسة :

ــ ألم تشرب من ماء النهر ؟ إن هذا الماء يبعث بقوة ألف رجل فى كل شربة منه ، فكم شربت ؟

قال بانكسار :

ــ غرفتين .

ــ إذن فأنت بقوة ألفى رجل ، فمن غيرك يمكنه التغلب على حراس هذا الباب العملاق وفتحه ؟ لو لم تكن شربت من النهر لفتحت الباب أنا لأننى أقواكم ألستُ كذلك ؟

ــ بلى يا عظمة القائد .

ــ ولكنك اكتسبت قوة كبيرة الآن .

ثم أردف صائحًا :

ــ هيــا .

ولّى الرجل ظهره لــ (سانتور) غير مقتنع بوجود مثل هذه القوة بداخله ، واتجه ناحية البوابة بينما تحرك القائد بجيشه حول المدينة ليصبح خلفها لا أمامها .

* * *

ــ وهكذا أيها الرشيق قُتل الجندى المسكين عندما كان يتسلل داخل المدينة لفتح الباب ، بينما انقض (سانتور) وجنوده على أهلها من فوق سورها الخلفى وقتلوا من قتلوا حتى استسلم الباقون .

تبادل الشيخ و(الزين) و(على) نظرات فيما بينهم قبل أن يسأل (الزين) :

www.dvd4arab.com

ـــ وكيف أصبح السفاح هكذا ؟ أعنى لصًّا وقاطع طريق بعدما كان قائد جيوش ؟

نظر الرجل لرفيقه الذى أجاب :

ـــ لم يكتف ـ حسبما سمعنا ـ (سانتور) العظيم بقيادة الجيوش ، وكان يطمح فى حكم البلاد كلها .. فعلم السلطان بأمره وعزله لينفيه بعد ذلك خارج الحدود .. لذا بدأ يجمع المجرمين وقطاعى الطرق ليكوّن منهم جيشًا يقتحم به الدولة ويقتل السلطان ثم يستولى على العرش ، ولما كان رجل جيش ومن جمعهم لا خبرة لهم بأمور القتال المنظم ، والكثير منهم لا يعرفون كيفية المبارزة ، فقد بدأ فى تدريبهم وتعليمهم فنون القتال ، لكنه كان فى حاجة إلى موارد الحياة من زاد وغيره .. فاقترحوا عليه ممارسة أعمال اللصوصية ليلاً بعد التدرب نهارًا ، فوافق على أن يجعل الأمر بشكل أكثر تنظيمًا وأقل خطورة .

كان الرجلان يحكيـــان فى وله كأنما يسترجعـــان ذكريات بطولاتهما الشخصـــية ، وكـــان (على) لا يزال على تردده بين مدخل الكهف وداخله ، و(الزين) حذرًا من احتمال أية مفاجئة يُقدم عليها أحدهما ، فى حين يتابع الشيخ حديثهما بتركيز بالغ قال بعده فى توتر :

ـــ وكأنكما تحدثانى عن الفارس الحاذق .

ـــ ومن يكون الفارس الحاذق يا شيخ ؟

* * *

اصطحب الرجل العجوز كلاًّ من (عبد الحميد) و(الزين) و(على) وهم يسيرون ممسكين بزمام جيادهم فى طرقات المدينة ، ثم سأل (الزين) :

ـــ كم عمرك أيها الشيخ العجوز ؟

ـــ عمرى أكثر من ستمائة وعشرين عامًا .

قالها بهدوء استفز (على) الذى قال :

ـــ ولكنك تبدو أكبر من ذلك بكثير أيها العجوز .

اشتم الرجل سخرية (على) فى حديثه ، وبرغم ذلك قال بنفس الهدوء :

ـــ لقد تناولت سائلاً يطيل العمر .

قال (الزين) بسرعة وتلقائية :

ـــ ديننا ينفى الخلود .

ـــ كل الأديان تنفيه يا ولدى .. لا تترك لتلك المصطلحات التى صُبت فى عقلك تحجر على تفكيرك واستيعابك ..

قلتُ إنه يطيل العمر ولم أقل يمنح الخلود ، هناك فارق .

ـــ أعلم أيها العجوز .. اختلط علىّ الأمر .. هل أنت من صنع هذا السائل ؟

كان الشيخ (عبد الحميد) يسير صامتًا يتابع هذه الحوارات ، أجاب العجوز :

ـــ كلا .. ولكن تطوّعت لتجربته علىّ .

ـــ عالم من مدينتنا صنعه ، وقد صنعه من مخلوقات الهية .

ـــ أعشـــاب ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

كان الموضوع قد بدأ يجذب اهتمام (على) و(الشيخ) كثيرًا .. رد الرجل :

ـــ نوع من الأعشاب نادرة الوجود ، استخلص منها المادة الأساسية للسائل المخلوط بأنواع أخرى ، وبعض المواد مستخرجة من حيوانات ونحل .

سأل الشيخ (عبد الحميد) باهتمام :

ـــ ما هى تكويناته بالتحديد ؟

ـــ لا أعلم .

كانت عيونهم تحوم فى المكان أثناء السير والمحاورة ، والعديد من الأشياء كانت تبدو غريبة عليهم ولكنهم يتجاوزونها .. ربما لانجذابهم بالحديث مع الرجل العجوز :

ـــ لماذا لم يسجل هذا العالم طريقة إعدادها من أجل إفادة الآخرين ؟

ـــ لم يعلم أنها نجحت .. فطوال ستة أشهر من متابعة تأثيرها علىّ لاحظ أننى مازلت أتقدم فى العمر ، فرجع إلى تجاربه مرة أخرى دون أن يصل لنتيجة .

سأله (الزين) :

ـــ حيرتنى يا شيخ .. كيف إذن أفادتك المادة وهى لم تفلح ؟

كان الجميع قد وصل إلى مكان ممهد ضيق تقل فيه المارة ، تتناثر فى نهايته على مرمى البصر أعمدة كثيرة تجذب الانتباه بأشكالها الغريبة ، فجلس العجوز على صخرة موجهًا كلامه إلى (الزين) :

ـــ لم تفلح فى وقتها ، لكنها بدأت مفعولها بعد ما يقرب من سبع سنوات .. وقتها كان العالم قد مات .

قال (على) :

ـــ لا شك أنك سعيد بهذا العمر .

ـــ ليس سيئًا أن تستمر فى الحياة ، ولكن السيئ أن تكون عجوزًا زاهدًا فى متعها .

ثم شخص ببصره قليلاً قبل أن يكمل :

ـــ وأن تدفن أحباءك عبر الأجيال .. لتشعر بالوحدة .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

٥ ـ الصولجان ..

مثل قائد جيوش الغرب بين يدى إمبراطوره الجديد الذى قال :

ـــ ماذا رأيت فى أمر بلاد الشرق يا قائد الجيوش ؟

كان الوزير ـ صديق الإمبراطور ـ يقف عن يمينه ، فبدل قائد الجيوش نظراته بينهما قبل أن يقول :

ـــ لو أنه لا بديل عن الحرب لصالح البلاد فأنا رهن إشارتك سيدى الإمبراطور .

ابتسم الشاب مزهوًّا وهو ينظر بطرف عين لوزيره ، الذى كادت ابتسامته الخبيثة تشق شفتيه ، قبل أن يستطرد قائد الجيوش سائلاً :

ـــ فمتى تأمر بالرحيل يا سيدى ؟

ـــ أمّن حدود الدولة وأخلف وراءك من يقدر على ملء غيابك ، وليكن من ستصحبه من الجنود معك فى هذه المهمة على أتم استعداد عند الفجر .

أومأ القائد متفهمًا وتراجع بظهره كى ينصرف ، ولكن استوقفه الإمبراطور قائلاً :

ـــ أصحب معك مساعدك الأمين ، وجهز خطة سريعة للقضاء على الملك وأعوانه فى بلاد الشرق .. ثم ابعث لى فور انتهائك منهم لأرسل لك من يعمل على استقرار الأمور وحكم الولاية الجديدة .

صرف وجهه عنه وهو يقول :

ـــ أمر مولاى الإمبراطور .

وخرج من الديوان .

* * *

كان (الزين) غافيًا والآخرون نائمين داخل الكهف عندما تناهى إلى سمعه صوت حوافر تضرب الأرض ، ففتح عينيه على ضوء الصباح البادى ووقف ينظر حتى ظهرت جياد كثيرة عليها رجال ما إن نحوه حتى أشهروا سيوفهم ، فسحب سيفه بدوره وهو يوقظ رفيقيه ، فاستيقظ الرجلان المقيدان أيضًا ، ثم سحب بيده الأخرى مشعلاً من النار الموقدة وسط الكهف ، وما لبث أن اقترب القادمون حتى لمح (على) سوطًا فى جراب من تبدو عليه أمارات القيادة ، وصاح كل من (زعيتر) ورفيقه وهما يسقطان على ركبة واحدة يحنيان رأسيهما :

ـــ (سانتور) العظيم .

صاح (الزين) بالقادم فى غضب :

ـــ أنت السفاح إذن .

تجاهله (سانتور) وهو يتفحص المكان ويتفحص وجهى رجليه المقيدين ثم يشير بيده لمن يتبعه مباشرة كى يتقدم مترجلاً نحو (زعيتر) ورفيقه ، لولا أن صاح (علىّ) موجهًا سيفه لوجه الرجل :

ـــ لا يقترب أيكم من هنا .

وضع (الزين) يده على سيف (على) يخفضه ، دون أن يشيح ببصره عن (سانتور) الذى قال بصوت رخيم :

www.dvd4arab.com

ـــ شاب حكيم .

ثم وجه حديثه مكملاً لتابعه :

ـــ حرروهما من القيود .

شرع الرجل ينفذ الأمر فى حين قال الشيخ (عبد الحميد) سائلاً :

ـــ ماذا تريد منا أيها الغريب ؟

رد (سانتور) ساخرًا :

ـــ الآن أصبحت غريبًا يا شيخ (عبد الحميد) ؟

قطب الشيخ حاجبيه ، وهو يرد :

ـــ لم أظنك ستعرفنى أيها السفاح .

ترجل (سانتور) عن حصانه ، فبدا طويلاً عريض المنكبين بلحية منمقة وعينين مكحلتين .. وضع يده على سوطه فى الجراب حول خاصرته متقدمًا نحو الشيخ (عبد الحميد) .. ثم قال وقد اختلطت أنفاسه بأنفاس الشيخ :

ـــ لقد تغيرت ملامحك كثيرًا يا (عبد الحميد) ، ولكننى أعرفك لسحبك هذين الصبيين معك فى كل مكان .

كان كلٌ من (على) و(الزين) متحفزين لأى حركة غـــادرة يُقدم عليها السفاح وهو على هذه المقربة من الشيخ ، لكنه بعد جملته المهينة عاد إلى رجاله الذين انضم إليهم (زعيتر) وصاحبه .. ثم صاح آمرًا :

ـــ كبّلوا هؤلاء الثلاثة وارفعوهم على جياد لنا .. ثم ابحثوا عن جيادهم وأطلقوها .

تردد (على) فى الدفاع عن نفسه وصاحبيه فوجه نظراته إلى (الزين) والشيخ الذى أومأ لهما بما يعنى « ارضخا فعددهم أكثر منكما بكثير جدًا » ، وبذا استسلما على مضض وهم يوثقون قيودهم ، ثم أمر (سانتور) الرجل المكلف بتقييد الشيخ :

ـــ خفف عنه القيد ، فهو رجل عجوز لن يتحمل خشونة الحبل .

وأخذ يقهقه بصوت عالٍ والشمس تلقى بحرارتها فى كل مكان .. ثم اعتلى صهوة جواده .

* * *

أشار (الزين) بيده ناحية الأعمدة وهو يسأل الرجل العجوز :

ـــ ما هذه يا شيخ ؟

نظر الرجل حيث يشير (الزين) وكذا (على) والشيخ (عبد الحميد) :

ـــ تقصد الأشكال على الأعمدة ؟ إنها تصميمات هندسية .

(علىّ) :

ـــ إنها بديعة .

ـــ إنه علم .

الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ علم الهندسة تقصد ؟ نعرفه ، لكن لم نر مثل هذا من قبل .

ـــ اتبعونى .

قالها العجوز وهو ينهض باتجاه الأعمدة ثم وقفوا أمام أحدها ينظرون

Looloo

عن قرب :

ـــ هذا يسمى « الشكل ذا الأضلاع الخمسة » .. وذاك يدعى « الشكل ذا الأضلاع الأربعة .. »

قالها الرجل وهو يشير بسبابته إلى النقوش الموجودة على العمود ، فقال (على) :

ـــ إن من نحتها لشديد الحرفية .

ـــ لم ينحتها بشرى .

قالها العجوز وسكت يتابع ردة فعلهم ، وابتسم عندما أصابت جملته هدفها وبدت الدهشة على وجوههم .. ثم استطرد استجابة لحثهم الصامت على الإدلاء بالمزيد :

ـــ نقشتها أدوات وُجدت منذ آلاف السنين عرفها الأجداد أو اخترعوها ، لكنها ضاعت عبر الزمن .. هكذا يقول التاريخ أيها السادة .. اتبعونى .

سار مرة أخرى مولّيا ظهره للممر الضيق ، وهم يتبعونه حتى كهف وحيد على ارتفاع منخفض فى جبل صغير الحجم ، وقف أمامه قبل أن يقول :

ـــ هذا مكان مقدس ، فلتحذروا تدنيسه .

لم يفهم أيهم مغزى ما قاله بلهجة عميقة ، لكنهم تبعوه إلى الداخل ، وبدا عليهم الانبهار بطلاء الذهب البراق الذى يغطى جدار الكهف ، وأرضيته المصنوعة من مربعات مصقولة على ضفتيها مشاعل أعطت للمكان هيبة وصلت أعماقهم .. وكان العرش :

ـــ هذا هو عرش الحكم ، وذلك الصولجان فوقه شاهد على تاريخنا الغابر ، وهو من يحكمنا .

ـــ لا شك أن شخصًا مهمًّا فى هذه المدينة ، أليس كذلك ؟

ـــ بلى يا بنى .. أنا المسئول عن رعاية الصولجان ، مهمة توارثتها عن أبى وأجدادى .

قال (علىّ) مبديًا ملاحظة :

ـــ ولكن لا يوجد حراس على هذا الكهف .

* * *

شعر (الزين) بتوتر الشيخ (عبد الحميد) ، فسأله بحذر :

ـــ ومن يكون الفارس الحاذق يا شيخ ؟

تجاهل (عبد الحميد) سؤال (الزين) واتجه بعينيه وجذعه ناحية (زعيتر) ورفيقه :

ـــ ما الأداة التى يجيد (سانتور) استخدامها أكثر من غيرها ؟

نظرا لبعضهما فى دهشة من السؤال ، ثم قال أحدهما :

ـــ إنه يجيد استخدام السيوف والرماح ويكره الدروع .. لكن أكثر ما يحب استخدامه هو السوط .

ـــ هذا ما كنت أخشاه .. إنه هو .

قالها بشىء من اليأس لم يعتده صاحباه ، سأله (على) بتوتر :

ـــ ماذا هناك يا شيخنا ؟ أهو بهذه الخطورة ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ إنه الشخص الأكثر منازلة لى فى المعارك أيام كنت كبير جند جيوش الشرق ، وفى الكثير من هذه المعارك كاد أن يفتك بى لولا القدر الذى اعترضه .. إنه يجيد استخدام كلتا يديه .. السوط بيسراه ، والسيف أو الرمح فى اليد الأخرى .. إنه شخص خطر للغاية .

ـــ لا عليك يا شيخ ، سنتمكن من التصدى له .. فأنت أكثر من يعرف قدراتنا .

ـــ إلا مع هذا الرجل .. بعض الأشياء تكون موهبة لا تُعلّم ولا تكتسب .. وإنما تُنمى ، وهذا الرجل يستخدم كلتا يديه بمهارة فائقة .

شحنة من التوتر سرت فى الأجساد الطيبة ، وشىء من الشماتة سرت فى الجسدين الشريرين .. قال (علىّ) :

ـــ الله معنا يا شيخ ، فهو أقوى من كل (سانتور) على الأرض .

ـــ لندعو بذلك يا (على) .. لندعو أن يكون الله معنا دائمًا .

ثم صمت برهة قال بعدها :

ـــ من سيتولى الحراسة ؟ أشعر بالتعب وأرغب فى النوم .

رد (الزين) :

ـــ سأتولاها أنا يا شيخ .. نم هانئًا ولا تقلق .

قال (علىّ التوحيدى) :

ـــ أيقظنى عند منتصف الليل أو عندما تمل فأحل مكانك .

ربت (الزين) على كتف صديقه دون رد ، وافترش (علىّ) عباءته فوق الأرض لينام .

* * *

كانت الأميرة (سولى) تدور حول عرش والدها الجالس بهدوء يتابعها وهى شاردة ، ثم تروح وتجىء عبر الديوان عدة مرات قبل أن يستوقفها مبتسمًا بقوله :

ـــ إنه لسعيد الحظ حتمًا .

انتبهت للجملة ، فتوقفت حيث هى تتطلع إلى أبيها قبل أن تسأل :

ـــ من هو سعيد الحظ هذا يا جلالة الملك ؟

أجابها بصوت أبوى حنون :

ـــ ذلك الذى تجوبين الديوان من أجل قلقك عليه .

احمر وجهها خجلاً لهذا التلميح الماكر ، ثم اتجهت إلى كرسيها بجوار العرش وهى تقول :

ـــ لا أعى مقصدك بالتحديد يا أبت .

ـــ أعنى أنك تشغلين نفسك بالتفكير بى كثيرًا .

ثم مال نحوها وهو يغمز بخبائة جديدة :

ـــ أليس كذلك ؟؟

اشتدت حمرة وجنتيها فى حين دخل الحاجب مسرعًا يقول بعجلة :

ـــ كبير الجند يطلب مقابلتك لأمر عاجل يا مولاى .

لمح خطورة الأمر فى نبرة الحاجب فأمره :

ـــ ليدخل على الفور إذن .

وقامت الأميرة تستأذن فى الانصراف ، لكن طلب منها الملك أن تبقى

Looloo

لتلقى هذا الأمر الخطير معه .. فاستجابت ، ودخل كبير الجند مهرولاً يسبقه كلامه بتوتر :

ـــ جيوش الغرب تتجه نحونا يا مولاى .

ـــ مرة أخرى ؟ خلال هذه المدة القصيرة ؟

ـــ هذه المرة بضراوة .. (عين الدولة) يتوجس خيفة من هيئة قدومهم المفزعة .

أخذ الملك يتفحص ملامح وجه كبير جنده المتجهم ، والأميرة تدور برأسها عشرات الأسئلة ، لكن الوضع لا يسمح بإلقاء أى منها الآن .. قال الملك :

ـــ قم بتدابيرك الأمنية فى مثل هذه الظروف ، كم من الوقت يلزمهم للوصول إلى المدينة ؟

ـــ قبل غروب الشمس .

ـــ وأظنهم سينتظرون حتى الفجر كى يقتحموا المدينة ، أليس كذلك ؟

ـــ كلا يا سيدى ، وإلا لحسبوا الزمن بحيث يصلون عند منتصف الليل فيرتاحون قليلاً ثم يشرعون بالهجوم .. أما طريقة حضورهم فى هذا الوقت تعنى أنهم ينوون الاقتحام مباشرة فور وصولهم .

عاد الملك لتفحصه وتفكيره ، ثم قال :

ـــ هل تتوجس شيئًا ؟

أجابه كبير الجند بحزم :

ـــ علينا افتراض الأسوأ .

ـــ تدبر الأمر إذن .

أحنى الرجل رأسه وهو يتراجع بظهره قائلاً :

ـــ أمر مولاى الملك .

صاح الملك منادياً الحاجب ليبعث إليه بكبير العسس ، وبدا أمام الأميرة لحظات قلائل لتخرج ما فى أعماقها من تساؤلات .

* * *

ـــ الصولجان يحمى نفسه يا بنى ، هو ليس بحاجة لحماية من أحد .

قالها الرجل العجوز ردًّا على (علىّ) ، ثم استطرد :

ـــ كما أنه ليس معرضًا للخطر من قبل أى من سكانها ، فهم يقدسونه ويؤمنون بأن وجودهم وسلامتهم من وجود وسلامة هذا الصولجان .

ـــ ما اسم هذه المدينة إذن ؟

ـــ لم يكن لها اسم قط .. ولكننا نطلق عليها (بلاد الأساطير) .

ـــ ما اسمك أنت إذن ؟

ـــ لا نحتاج إلى أسماء .. هذه أمور حديث العهد بها كل البشر ، فما كانت هناك أسماء من قبل .

كاد يجن (علىّ) من حواره مع العجوز بهذا الشكل ، فولاه ظهره ، مما أجبر (الزين) على جذب انتباه الرجل عن رفيقه كى لا يغضب فسأله :

ـــ هل تتميزون بالكرم إذن ؟ نحن بحاجة إلى نوم وراحة .. أشرفت الشمس على المغيب .

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ نحن لا نثق فى زائرى النهار ، عليكم الخروج ثم العودة عندما يعم الظلام المكان .

أمسك (علىّ) برأسه وسار بضع خطوات بعيدًا عن الكهف ، فى حين قال الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ نشكرك أيها العجوز ، سنفعل كما أوضحت .

ابتسم الرجل وهو يحنى رأسه قائلاً :

ـــ لقد سبقكما صديقكما ، فأسرعا للحاق به .

أدرك كل من (الزين) والشيخ (عبد الحميد) أن الرجل يلمّح لغضب (علىّ) ، فردا على ابتسامته بمثلها وانطلقا إلى حيث جيادهم ليتجهوا نحو أسوار المدينة ، وامتثل (علىّ) صاغرًا لرغبة صديقيه حانقًا على تنفيذهما ما أطلق عليه (هُراء) .

* * *

بدا مخفّفًا من ملابسه ، مشدودًا من ذراعيه وقدميه بشكل رأسى إلى عمودين متجاورين ، رقبته مطأطأة حتى كاد عنقه من الخلف يلامس سقف المكان .. كان وضعًا غير مريح بالمرة ، ومن تحته قدر كبيرة تغلى بالماء تتصاعد أبخرته عليه فى وضعيته هذه .. وسيلة تعذيب جهنمية فى بساطتها ، بعد برهة سمع أنين تصدر منه تمتمة ، فأصاخ السمع مخترقًا آلامه وصوت الغليان ليميز صوت (علىّ التوحيدى) :

ـــ هل .. أنت .. على ما يرام .. يا (زين) ؟

جاء الصوت من خلفه ، فرد بصوت لا يقل وهنًا :

ـــ لا أظننى .. كذلك .. يا (علىّ) .

ـــ أين .. الشيخ (عبد الحميد) ؟

نقّلا بصريهما فى المكان ببطء بحثًا عنه فلم يجدا سوى جدران وأرضية وصخور متناثرة وبقايا دماء وحبال مهترئة ، ثم دخل أحد رجال (سانتور) يقـول :

ـــ (سانتور) العظيم يسألكما الدخول .

كان الرجل يدور بينهما يتفحص وجهيهما .. رد (الزين) :

ـــ وهل نملك أن نأبى ؟ فليدخل (سانتورك) العظيم .

واكتفى ، فابتسم الرجل وهم بالخروج من المكان ، ولكن استطرد (الزين) قائلاً :

ـــ أيها الوغد .

توقف الرجل واستدار ناحية (الزين) ورأى ابتسامة واهنة على ركن شفته المنهكة فعاد مكملاً طريقه بتجاهل ..

لحظات ودخل (سانتور) يمسك سوطه وخلفه رجلان ، وبدأ الكلام :

ـــ كيف تشعران أيها الفارسان الهمامان ؟

رد (علىّ) بسرعة :

ـــ بأفضل منك أيها السفاح .

ابتسم (سانتور) ، ثم ضحك مجلجلاً وقال :

ـــ وأنت أيها الفارس الملك المنتظر ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

شعر (الزين) بدهشة حقيقية لجملة السفاح .. ثم شعر بقوة الغضب تسرى فيه دفعة واحدة ونسى كل آلامه وهو يسأل :

ـــ أين الشيخ (عبد الحميد) أيها الوقح ؟ ماذا ألمّ به ؟

سرت نفس القوة بعروق (علىّ) لما انتبه لمقولة صديقه ، وقطّب حاجبيه مصغيًا السمع لما سيجيب به (سانتور) الذى قال :

ـــ لا تقلق عليه يا فتى .. فهو ضيفى معززًا .

ازداد انعقاد حاجبى (علىّ) ، و(الزين) يقول :

ـــ أمثلما نحن معززان هنا ؟

قهقه (سانتور) ، وهو يجيب :

ـــ بل خير من ذلك .. فالفارس (عبد الحميد) له عندى مكانة خاصة ، مكانة تفوق ما تتصوره يا فتى .

شعر (الزين) وصديقه بالقلق لهـــذا الرد ، وكاد (الزين) يكمل استفساراته ، لكن انقلبت سحنة السفاح فجأة وقطب حاجبيه بغضب واقترب من جسد (الزين) المعلق ، وهو يسأله :

ـــ تحت أى أرض يوجد السائل الأسود أيها الشاب ؟

* * *

الفاكهة مدلاة من الأشجار ، والأميرة (سولى) تجوب تحتها تتبعها وصيفتها بقلق .. مدت الأميرة يدها وقطفت ثمرة نضجت ، أخذت تقضم منها وهى شاردة تحملق فى لون الثمرة حينًا وفى الأرض حينًا .. أخذت تفكر فى حوار والدها معها ، هل يعنى ما قال حقًا ؟ أم إنه يلمّح إلى شىء

ما ؟ هل لاحظ إعجابها بـــ (الزين) ؟ هل لاحظ (الزين) نفسه هذا الإعجاب ؟ نظراتها له .. متابعتها لكلامه ، تداعت أفكارها إلى الحرب الموشكة حتى صدر فى المكان صوت زمجرة ، فانفلتت الثمرة من يدها مع صرخة جزعة أطلقتها الوصيفة ، اتجهت الأميرة ببصرها نحو الصوت لتجد ذئبًا رماديًّا بارزة أنيابه ينظر لها بعينين لامعتين ، وضعت يدها على فمها لتكتم صرخة تكاد تفلت منها ، بينما الذئب يقترب بهدوء ، ثم قرر الارتكاز على ركبتيه استعدادًا للقفز ، وفجأة أصابه سهم تلاه آخر أعجزه عن الحراك ، والأميرة تحملق فى الدماء السائلة حتى سمعت صوت رجل :

ـــ هل أنت بخير يا مولاتى ؟

استدارت باتجاه محدثها لتجد جنديًّا يمسك النشابة بيمناه وسهمًا حرًّا فى اليد الأخرى ، أومأت له برأسها فابتسم الجندى ، وهو يقول :

ـــ يبدو أن وصيفتك ليست بالشجاعة التى تمتلكينها .

كان يشير بسهمه تجاه الوصيفة المستندة على جذع شجرة تذرف دموعها ، والجندى يتجه إلى الذئب يتحقق من موته والأميرة تتابعه بعينيها حتى عاد إليها يطمئنها :

ـــ لقـــد مات .. أرسلنى الملك ضمن مجموعة أخرى للبحث عنك ، فهلمى بنا إليه كى يطمئن .

اتجهت الأميرة تُعين وصيفتها على النهوض وسارتا مع الجندى باتجاه القصر ، وما إن وقع بصر أبيها عليها حتى سألها بلهفة :

ـــ أين كنتِ ؟ أنت تعرفين أننا على مشارف حرب وتخرجين من القصر هكذا دون اصطحاب جنود الحراسة ؟

www.dvd4arab.com

لم ترد الأميرة وهى مطأطئة رأسها فاتجه الملك ناحيتها ورفع رأسها ليرى دموعًا تزحف من عينيها ، فسألها بتأثر :

ـــ ماذا بك ؟

ـــ لقد كاد يفترسنا ذئب ، لولا أن قتله الجندى الذى وجدنا .

ضمها إلى صدره وهو يقول :

لا بأس .. لا بأس سنكرم هذا الجندى لإنقاذه إياك ، بل سنكرم كل الجنود احتفاءً بسلامتك .. ولكن لا تقلقينى عليك مرة أخرى ، يكفينى ما أحمل من أعباء .

سحبتْ نفسها من صدر أبيها ونظرت إليه من خلف دموعها ، ثم أومأت برأسها إيجابًا وانصرفت .

ـــ أين كبير الجند ؟

* * *

٦ ـ السائل الأسود ..

استند الثلاثة إلى صخرة ضخمة قبيل الغروب حتى يجن الليل فيتمكنوا من دخول المدينة العجيبة ليبيتوا بها كما أخبرهم حارس الصولجان ، بينما الجياد معقود حبالها فى بعضها .. قال (علىّ) :

ـــ ما أخبار كتفك يا شيخ ؟

تحسس الشيخ (عبد الحميد) كتفه اليمنى ، وهو يقول :

ـــ بخير يا (علىّ) ، إن الضمادة هوّن الأمر كثيرًا .

ـــ لا أصدق أننا أفلتنا من (سانتور) ، إنه كوحوش الأساطير .

ـــ إننى حى حتى الآن لأن رجلاً تلقى رمية سهم بدلاً عنى منذ سنوات بعيدة .

قالها الشيخ (عبد الحميد) وهو شارد بعينيه فى اتجاه المدينة ، ثم استطرد :

ـــ هذا الرجل كان والد (سانتور) .

اتسعت عينا (الزين) و(علىّ) وهما يحدقان فى الشيخ الذى التفت ناحيتهما وبدأ فى الضحك للتعبير المرتسم على وجهيهما ، ثم قال :

ـــ ما بكما ، أهكذا تستقبلان الأمور ؟

شعرا بالخجل وعدلا من وضع عينيهما ، ثم قال (الزين) :

ـــ معذرة يا شيخ ، ولكن جملتك ذكرتنا بجملة قالها السفاح بينما كنا معلقين يغلى من تحتنا قدر الماء .

www.dvd4arab.com

ـــ ماذا قال يا (زين) ؟

ـــ لما سألناه عنك قال إنك معزز لأن لك عنده مكانة خاصة ، ولم نفهم الجملة سوى الآن ، هل كان ينوى الانتقام لأبيه ؟

ابتسم الشيخ (عبد الحميد) وبدأ يحكى :

ـــ كنا فى معركة مع جيش أقاصى الشرق دفاعًا عن بلادنا ، لم تكن وقتها بهذه المساحة الشاسعة ، كانت هناك دولة صغيرة على حدودنا ـ وقتها ـ تساندنا خشية أن ينتصر علينا جيش العدو فيزحف عليهم بعدها .. كان قائد جيش هذه الدولة الصديقة هو والد (سانتور) ، كان فارسًا شجاعًا وكثير الإعجاب بمهارتى .. لمح أثناء المعركة وغدًا من جيش العدو يهم بإطلاق سهم على ظهرى بينما كنت منهمكًا فى قتال ثلاثة منهم بسيفى ، فلم يجد سوى أن يلقى بنفسه ـ بعد أن ترك سيفه مغمدًا فى قلب أحدهم ـ ليحول بينى وبين السهم الذى أصابه فى مقتل .. ولما انتبهت للأمر بعد فراغى ممن أقاتلهم همس لى بفخر أنه أنقذ فارسًا يتفوق عليه فى مهاراته .

صمت الشيخ قليلاً ، وضوء الشمس الباقى يتبعهم ، ثم أكمل :

ـــ عرفت عنه فيما بعد كم كان شجاعًا .. وأنه كان أعسر اشتهر بغمد السيف فى قلب عدوه مباشرة بعد مبارزة قصيرة يستخدم فيها الدرع أكثر من السيف بمهارة لافتة .

خرج (علىّ) من انبهاره وسأل الشيخ :

ـــ ورث (سانتور) مهارة أبيه إذن ، وأضاف إليها مهارات أخرى . أليس كذلك يا شيخ ؟

ـــ بلى يا (علىّ) ، تلقى (سانتور) تدريبات فائقة المهارة أثناء كان جنديًا فى جيش الدولة التى حكى عنها (زعيتر) على أيدى مقاتل من الغرب اشتهر بمهارته فى استخدام السوط ، جذبته مهارة (سانتور) المتفوقة على زملائه ، والتى كانت نتاج تدريبات والده له ، فخصه بتدريبات شاقة علّمه فيها كل خبرته عن فنون استخدام السوط ، ولنضف مهارته السابقة فى استخدام الدرع والسيف من أبيه ، وأيضًا قدرته على استخدام كلتا يديه .

أكمل (الزين) :

ـــ وقلب شر ناقم ، وعقل شيطان .

ابتسم الشيخ لتعابير الاشمئزاز على وجه (الزين) ، ثم قال :

ـــ ولهذا سُمى بالفارس الحاذق ، فهو لا يقع فى فخاخ الآخرين بسهولة ، وإن حدث فإنه يتمكن من إنقاذ نفسه بسرعة .. أو لم يحن وقت دخول مدينة الأعاجيب هذه ؟

* * *

أى سائل تعنى ؟

أمسك (سانتور) بشعر (علىّ) وجذبه بقسوة ، ثم قال بشراسة :

ـــ يمكننى تمزيق أطرافك على مهل حتى تخبرنى بما أريد ، فلا داعى للمماطلة أو التحاذق .

صاح (الزين) :

ـــ سأجعل منك لُتفًا صغيرة لو آذيته أو الشيخ (عبد الحميد) ، نحن لا نعرف عما تتحدث .

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ السائل الأسود الذى يحترق بسرعة خرافية فور إشعاله ليصل فى لمح البصر من أوله إلى آخره ولو على مسيرة يومين .. أين يوجد هذا السائل ؟

كان رجل (سانتور) يقف على مدخل المكان بينما يصيح سيده فى الأسيرين عندما ميز بأذنه حركة خافتة من خلفه ، فاستدار شاهرًا سيفه ليجد الشيخ (عبد الحميد) يزحف باتجاهه متمتمًا :

ـــ إنهما لا يعرفان شيئًا عن الأمر يا (سانتور) ، لا شأن لهما بهذا السائل .

تردد الحارس بين سيده والشيخ لا يدرى ما يفعل حتى اقترب (سانتور) يعين الشيخ على النهوض بقسوة ويصيح به مقربًا أنفاسه من وجهه :

ـــ أخبرنى أنت إذن أيها العالم الفذ .

أجاب الشيخ (عبد الحميد) بإنهاك :

ـــ ولا أنا أدرى أين يوجد هذا السائل .

ـــ ألقاه (سانتور) بعنف ليصطدم بالجدار ، و(الزين) يحاول التخلص عبثًا من قيوده وكذا (على) الذى صاح :

ـــ ما هذه الحماقة أيها الوغد ، ألا تعرف كيف تعامل شيخًا ؟

أخرج (السفاح) سيفه وخدش به فخذ (علىّ) لتزيد من تمزق ملابسه ، ولتنزف دماؤه بهيئة خيط أحمر رفيع دون أن يئن فيما اصطكت أسنانه بشدة ، وقال :

ـــ ماذا نتوقع من سفاح غير هذه الأفعال ؟

ـــ إنك توقد نار غضبى أكثر .

رد (الزين) بسرعة :

ـــ لأنك لا تستطيع إيذاء سوى العجائز والمقيدين .

ظل (سانتور) على غضبه يحدق فى (الزين) بعض الوقت وهو يقبض على سيفه بقوة أكبر ، ثم بدأت تنفك تجاعيد غضبه رويدًا رويدًا ، وبدأ جسده فى الاسترخاء وهو يبتسم قائلاً :

ـــ أعلم أننى أكثر منك مهارة أيها الفتى ، ولكنى لن أنزع قيودك رغم محاولتك الذكية .. فأنا لن أضيع وقتى فى صراع سخيف مع شاب متحمس .

ثم اتجه ببصره إلى الشيخ (عبد الحميد) الذى كان يتابع الموقف بوهن ، وسأله :

ـــ أين الزيت الأسود يا (عبد الحميد) ؟ تحت أى أرض يوجد ؟

وأجابه الشيخ بنظرات هادئة ، وصمت مطبق .

* * *

دلف الشيخ (عبد الحميد) و(الزين) و(علىّ) مدينة الأساطير ليجدوا قناديل كثيرة ممتدة على جانبى الطريق الممهد وكل منهم تدور عيناه فى المكان بحثًا عن العجوز حارس الصولجان ، لكن هذه المرة لاحظوا نظرات الناس المشدوهين متجهة نحوهم ، ثم اقترب أحدهم مبتسمًا :

ـــ مرحبًا بالفرسان .. هل تبحثون عن مكان للمبيت ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

لم يكن الأمر بالتجاهل الذى لاقوه نهارًا قط ، فأثار هذا حيرتهم وريبتهم معًا .. رد (الزين) :

ـــ نبحث عن صديقنا حارس الصولجان أيها الرجل الطيب .

ـــ هو عند الكهف المقدس أيها الغريب الطيب ، سأرشدكم إليه .

كانوا فى حاجة لمرشد فى ذلك الظلام ، ثم وصلا بعد فترة حيث يرقد الشيخ أمام الكهف ، فرحب بهم والمرشد يقول :

ـــ لقد جذبت أضواء القناديل ثلاثة من الفرسان أيها الحارس أبدا ، فهل ترى منهم الفارس المنتظر ؟

ـــ سنرى يا صديقى ، سيظهر كل شىء فى أوانه .

قالها الشيخ بهدوئه الذى جعل (علىّ) يسترجع حوارات النهار ويعود لشعوره بالاستفزاز من هذا الرجل ، أخرجه من خواطره (الزين) بعدما رحل المرشد :

ـــ ماذا يقصد ذلك الرجل بما قال أيها الحارس أبدا ؟

نظر (علىّ) إلى (الزين) بلوم لتكراره جملة المرشد للحارس غير المفهومة لهم ، لكن لم يلحظ (الزين) هذه النظرة فى حين أجاب الرجل :

ـــ إننا ننتظر الفارس الغائب منذ أعوام نضىء له القناديل ليلاً كى يهتدى إلى الطريق لنا هنا .. هنا بلاده أبدا .

لم يتمالك (علىّ) نفسه فقال بسخريته الغاضبة :

ـــ هل كلمة (أبدا) هذه عادة ليلية عندكم ؟

رد الحارس العجوز بهدوئه :

ـــ لا تسخر منا ومن كلماتنا أيها الشاب ، فهذا لا يليق بفارس .

علّق الشيخ (عبد الحميد) مبتسمًا :

ـــ لا أظن (علىّ) هو الفارس الغائب إذن أيها الحارس .

نظر إليه (علىّ) معاتبًا بصمت بينما ضحك (الزين) ، والعجوز يقول :

ـــ نعم أيها الشيخ الطيب ، أظن الفارس الغائب سيأتى فى الوقت المناسب .

جذبت كلمة (الطيب) ـ المتكررة كثيرًا هـــذا المساء أيضًا ـ انتباه (علىّ) ، لكنه آثر تمالك نفسه هذه المرة ، قال (الزين) :

ـــ من هو هذا الفارس ، ولماذا غاب ؟

ـــ إننا لا نعرف كيف هو شكله ، لكننا نعرف أنه سيأتى أيها الشاب .

ركض عبرهم أحد سكان المدينة وهو يصيح :

ـــ لقد سُرقت صخرة البئر .. سُرقت صخرة البئر .

فكرر الحارس جملة الراكض بجزع :

ـــ يا إلهى ، لقد سُرقت صخرة البئر .

وكان هذا أكثر ما لاقاه (علىّ) ـ حتى الآن ـ مـــن جنون أهل هذا المكان .

* * *

ضربت حوافر جياد جيوش الغرب الأرض باتجاه بلاد الشرق ، وفى

Looloo

وسطها كان قائدهم يقول لمعاونه بأسى :

ـــ لستُ سعيدًا بهذه المهمة ، إن القوم لم يعادونا ، بل وأظهروا سلامة نواياهم ، فكيف نحاربهم ؟!

ـــ إنها أوامر الإمبراطور يا عظمة القائد .

ـــ ما كان يجب أن أنصاع بهذه السهولة ، كان لابد من إقناعه بالعدول عن هذا القرار المتسرع .

قال معاونه بشيء من العصبية :

ـــ قائد بلادنا لابد أن يكون حكيمًا يا عظمة القائد ، وهذا القرار جاء بعد حكمة وتروٍّ .

صاح القائد بعصبية :

ـــ أى تروٍّ هذا الذى اتخذه حاكم لم يمض على حكمه يوم واحد ؟

ثم صاح بصوت أعلى بجنوده :

ـــ قفوا جميعًا يا جنود إمبراطورية الغرب .

بدأ كل منهم يجذب لجام جواده انصياعًا لأوامر القائد ، فى حين سحب المساعد سيفه بسرعة وثبته على رقبة قائد الجيوش ، وهو يقول بغضب :

ـــ أمرنى جلالة الإمبراطور أن أتولى قيادة الجيش لو أنك تقاعست عن تنفيذ أوامره ، وأن أعيدك إليه مكبلاً ..

فاعذرنى أيها القائد .. السابق .

لم يتمكن القائد أن يدير رأسه ناحية معاونه بسبب السيف المثبت على عنقه خشية أن يصيبه ، فقال من موضعه :

ـــ لهذا كان قرار الإمبراطور مترويًا يا معاون القائد ، أليس كذلك ؟

تجاهل المساعد الرد على هذا السؤال ، وأمر رجلين من أقرب الجنود إليه بتقييد القائد السابق وتجريده من أدواته القتالية والدرع ، وأرسل به خمسة من الجنود ناحية بلاد الغرب ..

إلى الإمبراطور مباشرة .

* * *

تغمر الحرارة ومياه العرق كلاً من (الزين) و(علىّ) ، بينما الشيخ (عبد الحميد) ملقى بجوار الحائط و(سانتور) يحمل سوطه ـ الذى أبدله مكان السيف ـ وثبت يده الأخرى على خصره رافعًا رأسه وصدره قائلاً :

ـــ إن هذا السائل سيمكننى من فعل الكثير يا (عبد الحميد) .. سيكون من اليسير علىَّ خلع كل الحكام من بلادهم ـ بعد إثارة بعض القلاقل بها وبأمنها ـ وضم هذه البلاد جميعًا لدولة بطول الأرض وعرضها تحمل اسمى ، وتنصاع لحكمى .

بدأ يدور فى المكان وهو يضم أصابعه الحرة مستطردًا :

ـــ سأحكم العالم بهذه القبضة ، وأوزع خيرات الأرض على الناس أجمعين .

قال الشيخ وهو يتفحص (سانتور) بملابسه الخضراء وبشرته البيضاء ، والحُمرة المحيطة بعينيه المكحلتين ، وشعره المصفف على هيئة خصلات متساوية يتعدى طولها كتفيه بقليل :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ إن من له مثل قلبك وعقلك لا يمكن أن نترك له حكم البشر يا (سانتور) ، الناس فى حاجة إلى العدل والرحمة لا إلى أمثالك من السفاحين .

أصاب (سانتور) كتف الشيخ بحركة مفاجئة من سوطه تركت فيه ألمًا وجرحًا صغيرًا ، قال بعدها :

ـــ لا تثر حفيظتى أيها العجوز ، أخبرنى بمكان الزيت فأتركك وهذين لحال سبيلكم .

ـــ حتى لو كنت على دراية بمكانه فلن أخبر به وغدًا مثلك .

ـــ أنت لا تتعلم من أخطائك إذن .

وأصابه مرة أخرى فى نفس الكتف بالسوط ، وازداد ألم الشيخ ، بينما كان الإنهاك قد نال كثيرًا من الشابين المعلقين ..

وخرج (سانتور) آمرًا حارسه بالتيقظ والحفاظ على النيران مشتعلة تحت القدر حتى يرجع .

* * *

سأل الشيخ (عبد الحميد) حارس الصولجان باهتمام :

ـــ وماذا عن تلك الصخرة أيها الحارس ؟

ـــ إنها غطاء البئر الذى يبيت فوقها بعد نفـــادها فى نهاية النهار ، فنستيقظ صباحًا لنجدها وقد امتلأت بالماء من جديد ، ومن دون غطاء البئر لن تمتلئ البئر مرة أخرى .

لانت ملامح الشيخ (عبد الحميد) ، و(علىّ) يزداد توترًا من كبته لما يجيش بنفسه حيال هذا الرجل وهذه المدينة ، ولم يعلق (الزين) على الأمر وإن تابع الجميع خطوات الحارس الذى سار فى اتجاه لم يحتاجوا جهدًا ليعرفوا أنه يؤدى إلى البئر ، حتى وصلوا ليجدوا أناسًا كثيرين ملتفين حول هذه البئر ، بدأ الحارس يخترق الصفوف يتبعه (الزين) بفضول فى حين وقف الشيخ و(على) يتابعان ما يحدث .. بعد فترة جاءهم (الزين) يقول باهتمام :

ـــ إن العرافة تجلس بجوار البئر وقد أخبرتهم أن السارق غريب عن المكان .

صاح (علىّ) :

ـــ تبًّا ، نحن الأغراب الوحيدون هنا .. سيفتكون بنا الآن .

اتجهت أبصار الناس فجأة إليهم والحارس يقترب منهم ، فقال (علىّ) هامسًا لرفيقيه :

ـــ هل نركض أم نخرج سيوفنا الآن ؟

قال الحارس صائحًا لهم قبل أن يجد (علىّ) ردًّا :

ـــ إن العرافة تخبرنا بأن الفارس الغائب سيجلب لنا الصخرة الآن .

ثم سكت وهو يستمر فى الإقبال نحوهم حتى وصل فقال :

ـــ وأن هذا الفارس هو أحدكم .

اندهش الثلاثة قبل أن يسأله (علىّ) :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ ولماذا لا يكون من سرق الصخرة هو أحدنا ؟

ـــ لأننا ـ أيها الشاب ـ رافقناكم منذ دخولكم المدينة وحتى الآن ، كما أنكم لم تتجهوا ناحية البئر ولا تعرفون مكانها ، ولا تعلمون أهمية هذه الصخرة بالنسبة لنا لتحرمونا منها .

سأله (الزين) :

ـــ إذن فكيف يسرق الصخرة غريب . لابد أن يكون أحد سكان هذه المدينة ليكون عالمًا بمكان البئر وأهمية الصخرة بالنسبة لكم .

قطب حارس الصولجان جبينه لمنطق (الزين) ، ولكنه ـ برغم ذلك ـ قال :

ـــ إن العرافة لا تخطئ أبدًا .. من سرق الصخرة غريب عنا ، فما كان ليفعلها أى منا أبدًا .

قال الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ من منا الفارس الغائب إذن ؟

كان القوم يتابعون هذا الحوار الدائر بين الحارس والأغراب ، لكن بعد السؤال الذى أطلقه الشيخ اتجهت كل العيون إلى واحد فقط .

واحد من الأغراب .

* * *

انتقى القائد الجديد لجيوش الغرب أحد الجنود المتميزين ، بعد أن أمرهم جميعًا بمعاودة الزحف نحو بلاد الشرق .. قال له :

ـــ أنت الآن معاونى ، ستتعهد بالإخلاص لى من أجل الوطن والإمبراطور .

قال الجندى بسعادة :

ـــ أمرك يا عظمة القائد ، فأنا فداء الوطن والإمبراطور .

ـــ سيحاصر بعض الجنود بقيادتى مملكة الشرق من خارج أسوارها ، بينما يقتحمها عدد آخر بقيادتك يُرهبون سكانها ، فيأسرون من يأسرون ويقتلون من يأبى حتى تعم الفوضى ، بعدها تأتى بنفسك لتتولى قيادة بعض من الجنود هنـــا وأصحب أنا بعضـــهم إلى قصر الملك مباشرة لأحكم سيطرتى على المدينة .. هل استوعبت ؟

ـــ نعم سيدى .

ـــ عظيم .. سنرسل بعدها من يبشر جلالة الإمبراطور ليبعث من يحكم ولايته الجديدة ، وحتى يصل الرسول سنبقى فيها .

قال المعاون مبتسمًا :

ـــ خطة بسيطة يا عظمة القائد .

صاح به القائد :

ـــ لا تستهن بأى عدو مهما بدا ضعيفًا ، ومهما بدوت محنكًا .. هل تفهم ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

أجاب الرجل بارتباك :

ـــ أفهم سيدى .. أفهم جيدًا .

ـــ انطلق إلى المقدمة إذن .

* * *

كان حارس (سانتور) يدور حول (الزين) و(علىّ) المعلقين مبتسمًا يلفظ بعض كلمات الشماتة ، وهو بين الحين والحين يلقى نظرة على نار القدر ليتأكد من استمرار لهيبها ، حتى سمع حركة فى الخارج فتجهم وسحب سيفه بسرعة متوخيًا الحذر ونظر باتجاه المدخل المظلم ليفاجأ بحجرة تصيب وجهه ، فسقط على ظهره بينما شحذ الموقف انتباه (الزين) و(علىّ) المنهكين ، والشيخ المتألم بجوار الجدار ، اتجهت عيون الجميع ناحية المدخل ليروا القادم الذى بدا شبحًا فى الظلام حتى اخترق المدخل وتظهر ملامحه ، فبدت ابتسامة واهنة على شفاه (الزين) و(على) بينما تهللت أسارير الشيخ (عبد الحميد) ، وهو يقول :

ـــ ما رأيك فى هذه الحرارة يا (بقدونسى) ، أليست أفضل من الجليد الذى كنا به قديمًا ؟

اتجه (البقدونسى) ناحية الحارس المصاب يركله فى فكه وهو يدور باحثًا عن قيد ، قائلاً للشيخ :

ـــ بل هى أفضل من الأشواك التى رقدنا عليها يومًا تحت الشمس يا شيخ (عبد الحميد) .

قال (الزين) بوهن للرجل :

ـــ هلم إلىّ ، فك قيدى وقيّده به .

ابتسم الرجل وهو ينظر لـ (الزين) قائلاً :

ـــ كيف أصعد إليك إذن أيها الذكى ؟

ثم نظر بداخل القدر وهو يقول ساخرًا :

ـــ ماذا تطهون اليوم ؟ فأنا جائع بالفعل .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

٧ ـ المُعلم (خازن الشيبى) ..

رفع المعاون الجديد لقائد جيوش الغرب يده إشارة بالتوقف ، فاتجه القائد ناحيته من وسط الصفوف يسأله عن السبب فرد الرجل وهو يشير بامتداد ذراعه :

ـــ هنـــاك .

نظر القائد حيث يشير ، ثم قال :

ـــ سأصحب عشرة جنود لنرى من هؤلاء ، وابق متحفزًا مع الباقين .

ـــ أمرك يا عظمة القائد .

أشار القائد لعدد من الجنود وسار أمامهم حتى وصل إلى رجال كُثر يقارب عددهم عدد جيش ، وكانوا متسلحين يمتطون جيادًا ويرتدون ملابس خضراء .. تقدم أحدهم للقائد يسأله بتعالٍ :

ـــ هل تعرفنى يا هذا ؟

ـــ نعم أعرفك ، أنت من أحضر لنا الخرائط والكتب من بلاد الشرق وأنذرنا بقيام حرب .

ـــ وأنتم من خُدعتم ليتفادوا الحرب وقتها حتى يتموا استعداداتهم لها .

ـــ لم يخدعونا ، نحن فى طريقنا لغزوهم .

ـــ أطلب منك معروفًا مقابل هذا إذن .

ـــ لا أدرى إن كان علىَّ تلبية ما تريد .

قهقه (سانتور) طويلاً قبل أن يقول :

ـــ ابعث لى بقائدك إذن فهو يدرى ما عليه فعله .

أثرت الكلمة فى نفس القائد وقال بعصبية :

ـــ أنا القائد هنا وأنا أدرى بما علىَّ فعله .

احتدت ملامح (سانتور) وقال بصرامة :

ـــ فر منى ثلاثة رجـــال مـــن أهل بلاد الشرق ـ عجوز وشابان ـ أريدهم بأى ثمن .

قال القائد بحزم أكبر :

ـــ هذه أمور قُطَّاع طرق لا تليق بجيش إمبراطور الغرب ، أخل لنا الطريق كى نمر .

ـــ أنت لا تريدها حربًا بيننا الآن .. أليس كذلك ؟

ـــ كيف تجرؤ أيها الوغد ، فأنا قائد جيوش دولة عظمى وأنت لص تافه لا يليق بى التحدث معه فضلاً عن إجراء مساومة سخيفة هنا .

ـــ هذا التافه أنقذ بلادك من غزو محقق ، وعليك أن تحمد لى هذا أيها القائد المدعى .. كما أنه لا تبدو عليك أمارات القيادة قط .

جُرحٌ آخر فى نفس القائد الذى أخرج سيفه ليشهره لأعلى ، لكن سوط (سانتور) لفه قبل أن يكمل رحلته وألقى به بعيدًا وصاح به :

ـــ أنت لم تع ما كنت ستقدم عليه ، إن عاديتنا فأنت الخاسر حتمًا ، أنت لا تدرى من يكون هؤلاء الذين معى .. إنهم ليسوا مرفهين يحملون سيوفًا تبرق وينتمون لوطن كجنودك الخُرقاء ، بل هم أجساد تربت على الذل وتعرفت القهـــر ، ثم ذاقت بعـــد ذلك النعيم على يدىَّ أنا ،

www.dvd4arab.com

سيسحقون صبيانك بإشارة منى فى لحظات قبل حتى أن يتمكن أيهم من إخراج سيفه الهش .

نجح (سانتور) فى إثارة توتر القائد وزعزعة ثقته بجنوده ، فقال بعصبية أقل :

ـــ ماذا تريد إذن ؟ إنك تعوقنى عن مهمتى .

ـــ لا أطلب الكثير ، لكن حينما تحكم قبضتك على مملكة الشرق سأتولى أمر ثلاثة من رجالها أحتاجهم لأمر يهمنى .

ثم استطرد :

ـــ ولا تنس بعض خيرات الملك التى تعين هؤلاء الرجال على الصمود قليلاً أمام قسوة الحياة .

قالها مشيرًا باتجاه رجاله وأخذ يقهقه وحده عاليًا للدعابة التى ألقاها ، فى حين امتلأ وجه قائد الجيوش بالتجهم .

* * *

أخذت كل العيون تحملق فى وجه الشيخ (عبد الحميد) الذى ابتسم ، وهو يقول :

ـــ كنت أتوقع هذا .

سأله (علىّ) :

ـــ أكنت تعرف أنك الفارس الغائب يا شيخ ؟ هل كنت فى هذه البلاد من قبل ؟

ـــ كلا لم أطأها قبل اليوم ، ولكنها أسطورتهم يا (علىّ) .. لو أن

الفارس الغائب اختفى منذ سنين عديدة فلابد أنه فى مثل عمرى الآن .

قال (الزين) :

ـــ لكن عمر هذا الرجل يتجاوز الستمائة عام ، وربما غاب هذا الفارس منذ ثلاثمائة عام أو أربعمائة .

ـــ الأسطورة تعم هذه المدينة كلها يا (زين) ، أما السن فيخص الحارس وحده ، هذا يعنى أن الأعوام التى مرت على اختفاء الفارس إنما هى بتقديراتنا نحن لا تقديرات الحارس العجوز .

تمتم (علىّ) :

ـــ لو أنه فعلاً بهذا العمر .

صاحت العرافة الشابة بصوت أنثوى رقيق باد لمسامع الجمع :

ـــ هلم أيها الفارس العائد ، فبلاد أخرى تحتاج إليك الآن .

سألها (علىّ) بسرعة واستهانة :

ـــ أية بلاد تلك أيتها الدجالة ؟

نظرت إلى عينيه مباشرة وقالت بصرامة قاسية :

ـــ أنا عرافة أيها المحارب ، إن عدم احترام الآخرين ليس من شيم الفرسان .

ثم أردف :

ـــ بلاد الشرق فى حاجة إليكم .. قبل بزوغ الفجر .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

انفرد الشيخ (عبد الحميد) و(على التوحيدى) و(الزين ابن الجبال) بمعزل عن سكان مدينة الأساطير يتشاورون فى أمر إعادة الصخرة المفقودة لأهل المدينة ، سأل (الزين) :

ـــ لِمَ نساعدهم يا شيخ ونبحث لهم عن الصخرة ؟

ـــ يا ولدى هم يقصدوننا لنعاونهم ، ولا تنس أنهم كادوا يستضيفوننا لقضاء ليلتنا بينهم بدلاً من قضائها فى الخلاء .

قال (علىّ) :

ـــ لكن يا شيخ هذه ليست معاونة منا بل إننا سنقوم بما يجب عليهم فعله ، هذه صخرتهم ومدينتهم وعليهم إيجادها بأنفسهم .

ـــ أما كنت لتفعل يا (علىّ) لو أن ضعيفًا أو قليل الحيلة طلبك لمساعدته ؟

نكس (علىّ) رأسه بينما قال (الزين) من جديد :

ـــ إذن كيف ستجد الصخرة يا شيخ ؟ إنك فارسهم الآن وأنت من عليه إيجادها .

ـــ سوف نبحث ثلاثتنا عنها ، وسنبدأ بالبحث خارج أسوار المدينة بحثًا عن أى أثر للهارب بالقرب منها .. لكن علينا أن ننجز هذا الأمر بسرعة كى نعود إلى بلادنا قبل الفجر بوقت كافٍ .

أومأ الصديقان فاتجـه الشيخ إلى حارس الصولجان وأهله :

ـــ سوف أجد هذه الصخرة يا سادة عن طريق هذين الشابين ، فهما من سيرشدانى إلى مكانها .

قال الحارس :

ـــ لا بأس أيها الشيخ الطيب ، إنها مهمتك وعليك قضاؤها بطريقتك .

قالها وهو يومئ برأسه دون معنى ، قال الشيخ من جديد :

ـــ وسنحتاج إلى جياد قوية لنصل سريعًا إلى وطننا .

أومأ الكهل من جديد ، فابتسم الشيخ وأشار لرفيقيه متجهين إلى سور المدينة تتبعهم عيون السكان جميعًا .

* * *

استعان (البقدونسى) بملابس الحارس المغشى عليه وأمسك بالقدر يفرغ ماءها على الشعلة التى كانت توقدها ، ثم قلبها وفرش الملابس على قعرها الذى أصبح قمتها الآن ، وصعد عليها يفك قيود (الزين) و(علىّ) معلّقًا :

ـــ يمكنكم أكل قدمىَّ مشويتين بعد أن أنزل ، فهذا القدر ساخن للغاية .

قال (عبد الحميد) :

ـــ كف قليلاً عن سخريتك هذه وهلم لنفر من هنا .

قهقه (البقدونسى) طويلاً حتى سقط من فوق القدر وقال بصوت متقطع تمازحه الضحكات :

ـــ الفارس .. (عبد .. الحميد) .. الذى هابه كل السيوف .. وكل الفرسان .. ويذكره التاريخ .. على مر الأزمان .. يريد أن يفر .

واستمر فى قهقهته حتى دمعت عيناه وهو مستلق على ظهره يرفس الهواء بقدميه ، فقال الشيخ بعد أن عاونه (الزين) على النهوض بينما يجاهد (علىّ) ليكمل تخليص نفسه :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ يا لك مـــن طفـــل .. برغـــم كل ذكائك وحنكتك وشـــعرك الأشيب إلا أن الطفل بداخلك يشرق دومًا .

عاود (على) (البقدونسى) على النهوض والتخلص من هذه النوبة ، وأخذوا يتلصصون عنـــد المدخل ـ بعد أن قيدوا الحـــارس وكمموه ـ حتى أمنوا ، فخرجوا بسرعة من المكان ، وما إن ابتعدوا بما يكفى حتى تركهم (البقدونسى) يكملون رحلتهم حائرين دون إخبارهم بكيفية معرفته لمكانهم .

* * *

أخذت الأميرة فى حجرتها الواســـعة تمر بين الطاولة والكرسى أو بين السرير والمرآة ، تتلمس الوسادة أحيانًا وتجلس على الأرض أحيانًا وتبدل ملابسها ـ دون حاجة ـ أحيانًا أخرى ، مر وقت طويل عليها بهذا الحال ، ثم جلست تجهز بردية ومدادًا وريشة لتكتب :

« إلى الفارس الذى اجتاح قلب أميرة بلاد الشرق ، الأميرة (سولى) .. »

توقفت عن الكتابة وأخذت تتأمل ما كتبت ، لم تشعر بالرضا ؛ فقامت لتحرق البردية فى مدفأتها ، وعادت لتكتب من جديد :

« إلى فارس بلاد الشرق ، الملك المنتظر ..

من (سولى) .. الحائرة التى تتمنى له العودة سالمًا ..

إننى أيها الفارس (الزين) أعجبت بشجاعتك وجرأتك أيما إعجاب عندما خبرنى ما قمت به من أجل صاحبك ضد الأشرار ذوى الملابس الخضراء ، أعجبنى إخلاصك لصاحبك ، كم تمنيت أن تكون لى من هى فى مثل وفائك صديقة ، أشكو لها وهمّتم لأمرى .. أنت لا تظن أنى أخلو من الشكوى ، فوحدتى أقاسى منها ويُتمى يحز فى نفسى كل حين .

لا أخفى عليك فطنتى يوم رأيتك أول مرة ممتطيًا جوادك فعلمت أنك فارس ، تمنيت أن أعرف اسمك لحظتها .. ثم جاهدت محاولة تذكر وجهك بعدها دون أن أفلح كثيرًا ، حتى رأيتك فى ديوان الملك .. خفق قلبى من جديد ، وخشيت أن يفضحنى فانشغلت بفكرى فى أشياء أخرى غيرك ، لكن لم أتمكن من الاستمرار فى هذا طويلاً .

أعلم أنك الآن تواجه خطرًا ما ، كم أتمنى أن تنتصر .. أنا قد واجهنى خطر كبير هذا الصباح ، لا أنكر سعادتى لأن وضعتنى الأقدار فى هذه المغامرة .. أبدًا لم أمر بهذا الشعور من قبل ، هل أحكى لك ما حدث ؟ أنت فارس ومثل ما سأحكيه بالنسبة لك هين قابلت أعظم منه مرارًا .. ألم تفعل ؟

لقد حسمتُ أمرى وسأخبرك بمغامرتى ، أنت الآن صديقى حتى أفرغ من الحكى .. فهل تكتم السر ؟ الأصدقاء يكتمون الأسرار .

خرجتُ دون وعى إلى الأراضى المزروعة خارج القصر شاردة ، أفكر فيما أخبرتك به منذ قليل .. خفقان قلبى ورؤيتى لك أول مرة وجل هذه الأمور ، هل تذكرها أم إنك ستعاود القراءة من جديد ؟ بل أظنك لن تفعل ، فالفرسان لا ينسون بهذه السرعة .. خرجت ورائى وصيفتى تتكلم كثيرًا .. ربما كانت تنادينى أو تحذرنى من الخروج أو تشكو لى أمرًا .. لم أتابع حديثها ولم أهتم ، إذ وجدتنى أتناول ثمرة أقضم منها وأنا على شرودى وما تزال الوصيفة تتبعنى ، راعنى فجأة صوت مخيف .. صوت ذئب .. لم أعلم فى حينها أن هذا الصوت لذئب لكنه كان صوتًا مخيفًا ، سقطت منى الثمرة وانتبهت إلى أنها برتقالة ، لقد قضمت البرتقالة بقشرها ولم أنتبه للطعم إلا بعد عواء الذئب .. هل تعلم من الذى أنقذنى ؟ لقد كنت أتمنى أن تكون أنت منقذى .. أنت أول من جال بخاطرى

Looloo
www.dvd4arab.com

وقتها ، فى الحقيقة أنت لم تغب لحظة ، فكما أخبرتك أننى كنت أفكر بك .. لقد وعدتنى ، ستكتم السر .

وجدتُ جنديًّا من حراس القصر يطلق سهمين على الذئب وهو قافز باتجاهى فسقط لتوه .. أنقذ الجندى حياتى .. ولامنى أبى بعد هذا برقة .

أنت فارس وبالتأكيد وراءك من الهمـــوم الكثير ، أنت تُعد نفسك لتكون ملكًا ، وأنا أهدر وقتك بمغامرة ســـخيفة .. إننى لن أنسى هذه المغامرة ما حييت ، فهى أولى مغـــامراتى .. هـــل تظن أنه ستكون لى مغامرات أخرى ؟ هل شاركتك فتاة مغامرة من قبل ؟ هل يمكن أن تتاح لى مثل هذه الفرصة أيها الفارس ؟ أتتيحها لصديقة ؟ »

أخذت (سولى) تعيد قراءة ما كتبت عدة مرات ، وهى أمام الطاولة أو على السرير أو بينما تدور فى حجرتها من جديد ، المهم أنها فى النهاية طوت البردية ، وهزت رأسها متجهة نحو المدفأة !!

* * *

لم يكد الثلاثة يعبرون بوابة سور مدينة الأساطير إلى خارجها حتى وجدوا رجلاً يستند إلى صخرة على بُعد خطوات قليلة من البوابة ، اتجه إليه الجميع فبادرهم قائلاً :

ـــ مرحبًا أيها السادة ، تأخرتم قليلاً .

سأله (علىّ) مندهشًا :

ـــ وهل كنت فى انتظارنا يا هذا ؟

ـــ نعم أيها الرشيق ، ما فعلت هذا سوى لتأتوا إلىّ .

خطر للجميع أنها مكيدة ثم خطر لـــ (الزين) شىء آخر فقال :

ـــ أنت من رجال (سانتور) ألست كذلك ؟

قهقه الرجل وهو يقول :

ـــ كما توقعت تمامًا ، كنت أعلم أنك ستنتبه إلى ذلك أو الشيخ العجوز .. نعم أيها الفتى ، أنا من أعوان السفاح ، أو يمكنك القول إننى كنتُ من أعوانه .

ـــ ولماذا (كنت) ؟

ابتسم الرجل وهو ينهض مجيبًا :

ـــ لأننى فى مثل عقله ولى مثل طموحه ، وهذا لا يجعل التوافق بيننا شيئًا ممكنًا ؛ لذا قررت القضاء عليه .. لا يجتمع مثلانا فى عالم واحد فى ذات الزمن .

قال الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ فيم تريدنا إذن ما دامت نيتك سوءًا ؟ أنت تعلم أننا لسنا بقتلة .

اقترب الرجل من الشيخ :

ـــ بالنسبة لكم نيتى سوء ، أما بالنسبة لى فالأمر ليس كذلك ، وبالنسبة لكم فأنتم بحاجة للقضاء على (سانتور) وشره ، وأنا أهل لمساعدتكم فى هذا الأمر .

قال (علىّ) :

ـــ أو نقضى على سفاح من أجل آخر ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ بل من أجل بلادكم أيها الرشيق .

استدعت هذه الجملة عبارة العرافة بشأن بلادكم قبل الفجر ، فاستفسر (الزين) بحذر :

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ يتجه إلى بلادكم فى هذه اللحظة جيش الغرب ليغزوها ويضمها لحكم بلاده ، (سانتور) سيعاونهم مقابل أسر ثلاثتكم .. فلو أننا قضينا على (سانتور) لاختلت خطة قائد جيوش العدو ، ولتخلصتم من شره المضمر لكم ولبلادكم .. بل ربما والمضمر للأرض بأسرها .

تبادل (الزين) والشيخ و(علىّ) نظرات قلق حائرة فيما يسمعون ، وأخذ الرجل يتفحص أعينهم حتى استشف ترددهم فقال حاسمًا الأمر :

ـــ سنفقد الكثير من الوقت لو أنكم ستدرسون أمرى بالصمت طويلاً ، علينا إنقاذ بلادكم .

ـــ فيم مصلحتك إنقاذ بلادنا إذن ؟

سأله (الزين) ، فأجاب الرجل وهو يرفع الصخرة التى كان مستندًا عليها .

ـــ مصلحتى هى إيجاد من يعاونني على التخلص من السفاح ، وهذه أمثل فرصة وقررت استغلالها .

ـــ ماذا يضمن لنا أنك لن تكون سفاحًا آخر ؟

ـــ لن أكون ، أعدكم أن تأمن بلادكم شرى .

سأله الشيخ :

ـــ هل هذه الصخرة هى المسروقة من المدينة ؟

ـــ نعم يا شيخ ، هى ذى أحملها لهم كى يهدأ روعهم أولئك الحمقى ، وهلم لنتجه إلى بلادكم سريعًا .

أومأ الشيخ برأسه فبادره (علىّ) بسؤال :

ـــ هل سنتعاون مع لص يا شيخ ؟

ـــ بل سننقذ بلادنا والأرض كلها من خطر داهم يا (علىّ) .

وعاد بالصخرة إلى داخل الأسوار .

* * *

بعيدًا عن المكان الذى احتجزهم فيه (سانتور) ، وبعد مغادرة (البقدونسى) قال (علىّ) :

ـــ ما هذا السائل ـ الزيت الأسود ـ يا شيخ ؟!

ظل الشيخ على صمته قليلاً وهو شارد ، ثم أجاب :

ـــ كان (خازن الشيبى) أحد علماء أرض الجزيرة قد اكتشف بالصدفة تحت سفح هضبة سائلاً غريب اللون والملمس .. لزجًا أسود قمىء الطعم ، لكنه يؤمن بأن كل شىء فى الكون موجود لنفع .. فأخذ يبحث عن فائدة لهذا السائل اللزج حتى توصل إلى أنه وسيلة جيدة للاشتعال ، فكان يسكب بعضًا منه على الخشب ويوقد الشرر بقربه فتشتعل بسرعة ويشتعل بدوره الحطب بسهولة .

ـــ وكيف علم السفاح بأمره ؟

ـــ إن العلوم ليست ملك صاحبها يا (علىّ) .. لقد نشر (خازن)

Looloo
www.glyd4arab.com

هذه المعلومة بين أقرانه ليبحث كل عن مثل هذا السائل تحت أرض بلاده فيستفيدوا به ، لكن لم يفلح أحد ، ولم يعرف لهذا السائل مكان غير تحت هذه الهضبة .. وفى يوم نفد الزيت من تحت الهضبة ، ولم يعرف الكثيرون بهذا التطور فى الأحداث .. مر على هذا الأمر أعوام كثيرة ، وأظن المعلومة وصلت متأخرة وناقصة إلى (سانتور) .

قال (الزين) :

ـــ لماذا لم تخبره إذن بأن الزيت قد نفد ؟

ـــ لا تنس أننى أنكرت معرفتى بمكان السائل منذ البداية ، لقد استشعرتُ شرًّا من وراء اهتمامه بهذا الزيت فخشيت إخباره بمكان وجوده حتى لا ينبش أرض الدنيا كلها فيجده ، ويدمر العالم بشره المجنون .. وهو ما كان ليصدق أن الزيت نفد .

استمر الجميع على صمتهم حتى ابتسم (الزين) وسأل :

ـــ ما حكاية (البقدونسى) مع الجليد والأشواك يا شيخ ؟

ابتسم الشيخ و(علىّ) بدورهما ورد الأول :

ـــ كنا فى حرب مع جيش أقاصى الغرب ذات يوم ، وكانت قد وردتنا أخبار عن أسرهم المُعلم (خازن الشيبى) فى حرب مع الجزيرة منذ عدة شهور وأقمار ، فقرر (البقدونسى) التظاهر بأنه وقع فى أسرهم ولم أدر وقتها السبب ، لكن بمعاشرتى له فهمت أنه يدعى ما فعل ، وقررت ألا أتخلى عنه فتظاهرت مثله لأكون معه .. ولما عرفت خطته أيدته فيها .

صمت قليلاً كأنما يستعيد الأحداث ، ثم استطرد وهم على سيرهم :

ـــ كبّلونا شبه عراة إلى أوتاد فوق تلوجهم الباردة ، ولم يكف (البقدونسى) عن التشكى والسخرية لحظة ، وتعجب الجنود من ضحكاتنا أحيانًا

وتعبيراتنا عن الألم أحيانًا أُخر ، حتى خطرت لى فكرة استدعاء الشعور بقيظ بلادنا الشديد أثناء فصل الصيف بذاكرتى وجسدى كى تهدأ البرودة السارية فى أوصالى قليلاً .

أطرف ما فى الأمر أن (خازن) لم يكن ضمن الأسرى الذين وضعنا معهم ، فكان علينا البحث عنه فى الأماكن الأخرى بعد التخلص من قيودنا عند حلول الليل وإلهاء الحراس ، ثم إيجاده والعودة عبر كل هذه المسافة إلى بلادنا أو إلى الجزيرة .. خطة جنونية ، حماس الشباب وقتها وحده هو ما جعلنى أؤيد (البقدونسى) فيها .

قال (الزين) :

ـــ ولكننا لم نر (البقدونسى) معك سوى مرات قليلة .

ـــ إنه يكره الاستقرار ويهيم بالسفر والبحث والتعرف على أناس ومعرفة أمور العالم ، ويقارن بين الشعوب فى طباعها وطقوسها ، ولكنه فى النهاية لا يفتأ يعود إلى وطنه حين يشعر بالغربة تتسلل إلى نفسه ويفتقد أصدقاءه الأوَل .

سأله (علىّ) :

ـــ وهل أنقذتم المُعلم (خازن) يا شيخ ؟

ـــ علينا أن نستدعى قصة الرقود على أشواك الصبار أولاً يا (علىّ) .

قال (الزين) :

ـــ استدعها إذن يا شيخ ، فقد بدأت أشعر بالجوع والعطش والإرهاق .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

٨ ـ بلا حرب ..

ـــ لا أصدق سذاجة هؤلاء القوم يا شيخ ، لقد كانوا على وشك عبادتك لمجرد أن أعدت لهم صخرهم السخيفة تلك .

قالها (علىّ) ، فرد عليه الشيخ وهم سائرون مع معاون (سانتور) القديم و(الزين) كل على جواد :

ـــ ما لا أفهمه هـــو كيف علم رجل (سانتور) بأمر هـــذه المدينة وأسطورة صخرهم .

أجاب الرجل وهو متقدم المسيرة دون النظر إلى الوراء :

ـــ هؤلاء القوم يصنعون من نبات أخضر مسحوقًا أبيض يتناولونه ، فيذهب بعقولهم بأسوأ مما يفعل الخمر يا شيخ ، وأنا اعتدتُ مقايضة هذا المسحوق بطعام وملابس لهم ، ومن خلال ترددى الدائم عليهم علمتُ الكثير .

(الزين) :

ـــ لكنهم بدوا شديدى الاتزان والعقلانية .

ـــ بل الحارس والعرافة فقـــط ، إنهما من يحكم هذه المدينة ويدس فى رءوس أهلها الأوهام باسم الأساطير والتاريخ وما إلى ذلك .

الشيخ (عبد الحميد) :

ـــ ولكن هذه المدينة لم يكن لها وجود من قبل .

ـــ هُم رحالة متشردون تجمعوا فى هذه المنطقة وبنوا سورها بأمر الحارس الذى أوهمهم بأنها أرضهم ومدينتهم وكل هذا الهراء .

ـــ لكن فى الكهف ، لقد كان ...

قاطعـــه الرجل :

ـــ كان منمقًا وأخبرك الحارس بأنه من صُنع الأجداد وهُراء آخر ، إنها أوهام للناظر تصنعها ساحرتهم (العرافة) .

(الزين) :

ـــ يا إلهى ، وكيف خُدعنا بهذه الطريقة ؟

ـــ ومن تكون أيها الفتى كى لا تخدعك أفعال السحرة ؟ المهم أنك لم تخسر شيئًا من ذلك بل إنك متوجه لتنقذ بلادك كما نبهتك هذه المرة .

(علىّ) :

ـــ وما أدرانا بصدقها ؟

ـــ أنا أدرى .

(الزين) :

ـــ وما أدرانا بصدقك ؟

ـــ سنعود بهذا إلى نقطة البداية أيها الفارس ، لا وقت نضيعه فى عملية التصديق هذه .

قال الشيخ بغتة :

ـــ أنت تخفى شيئًا .. أليس كذلك ؟

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ حكاية القضاء على (سانتور) وأنك فى مثل تفكيره وطموحه .. ربما أنت صادق بهذا ولكنه ليس السبب الوحيد ، فليس أمرًا كافيًا لقتل شخص .

لم يُجب الرجل ، فتوقف الشيخ بجواده وشعر الرجل بهذا فاستدار ناحيته :

ـــ أنت على حق ، لكننى لا أرغب فى ذكر المزيد .

ابتسم الشيخ وعاود السير قائلاً :

ـــ لا بأس ، فلن أجبرك .. المهم أننى ازددت ثقة فى شيبتى هذه التى لم يخطئ حدسها .

قال (علىّ) بعد صمت خيم على الجميع :

ـــ هل (سانتور) يهودى كما يشاع عنه ؟

أجابه الرجل :

ـــ لا ندرى من أمر دينه شيئًا .

ـــ هل أنتم يهود ؟

ـــ هل تقصد بـــ (أنتم) أى أتباع (سانتور) ؟

ـــ نعـــم .

ـــ فى أتباعه من كل الأديان نفر أيها الرشيق .

استمروا على سيرهم بصمت جديد حتى كسره (علىّ) :

ـــ كيف عرفت أن هذا الرجل من أتباع السفاح يا (زين) ؟

ـــ ألم تلحظ منادته لك بالصفة التى وصفك بها ذلك الـــ (زعيتر) ورفيقه فى الكهف يا (علىّ) ؟

ـــ هذا صحيح .

ابتسم الرجل بإعجاب دون أن يلحظ أى منهم هذه الابتسامة لتقدمه المسيرة ، يليه (الزين) و(على) متجاورين ، ثم الشيخ خلفهم .

* * *

دخل الحاجب ديوان الملك (شاكسير) يبلغه بطلب (سانتور العظيم) لمقابلته ، فقال الملك :

ـــ العظيم !! ليدخل وحده إذن دون سلاح ، إنه شخص خطر لا يؤمن جانبه ، وابعث إلىّ بحارسين أو ثلاثة .

لم تمض وهلة حتى دخل السفاح مجردًا من سيفه وسوطه ، يرافقه ثلاثة من حراس الملك الذى بادره وهو يتفحص قامته :

ـــ أنت السفاح إذن .

ابتسم (سانتور) وهو يرفع صدره ويركز بيديه فى نطاقه قائلاً :

ـــ هو أنا يا جلالة الملك (شاكسير) الحكيم .

ـــ ماذا تريد ؟ ألم تكتف بمعادتنا وسرقة بلادنا وتأليب البلاد الأخرى علينا ؟

نظر (سانتور) إلى حراس الملك وهو يقول مشيرًا ناحيتهم :

ـــ هل سنتحدث أمام هؤلاء ؟ إننى وحدى بلا سلاح ، أفلا تأمن نفسك معى رغم هذا ؟

تطلع الملك فى عينيه مباشرة وهو يجيب بحزم :

ـــ دعك من هذه المحاولة ، أنت تعلم أننى عجوز مسن أفتقر للياقتك وقوتك ، يمكنك قتلى بيديك العاريتين أيها السفاح ، دون أن يطرف لك جفن .

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ كيف تظنني سأخرج من هنا بعد ذلك إن فعلت ؟

ـــ لا يهمني أن أفكر في هذا ، هات ما عندك .

قالها بعصبية وهو ينهض من عرشه ، فقال (سانتور) بهدوء :

ـــ إنني أضع قوتي وجيشي تحت تصرفك أيها الملك الحكيم .. أريد أن أكون من الأخيار ، ورأيت أنك أكثر من سيتفهم ذلك ويعاونني عليه .

حملق الملك في وجه (سانتور) طويلاً ثم ارتمى على كرسيه ، وبعد هنيهة هز رأسه وعاود الوقوف مرة أخرى وبدأ يدور حول عرشه مفكرًا في كلام السفاح ثم انتصب أمامه مباشرة وعاد للحملقة به مرة أخرى ، ثم قال :

ـــ كلا أيها السفاح لا يمكنني ذلك ، فأنا ما زلت أتوجس منك ولا أستطيع أن أسلم لك مقاليد أي أمور قبل التأكد من صدق نيتك وهدفك .

ـــ كنتُ أتوقع هذا الرد منك أيها الملك الحكيم ، لذا فأنا مستعد لعمل أي شيء تريده كي أثبت لك حسن نيتي وصدق هدفي كي تأمن لي .

هز الملك رأسه متفهمًا وعقد كفيه خلف ظهره واتجه إلى كرسي الحكم ووقف أمامه موليًا ظهره لـ (سانتور) لفترة طويلة ، والحراس الثلاثة متحفزون طوال الوقت ، والسفاح بادي الهدوء للغاية حتى التفت له الملك وسأله بسرعة :

ـــ ستكون تحت إمرة كبير العسس تعمل على تدريب حراس الأمن .

أجاب السفاح :

ـــ كما يأمر مولاي الملك .

صاح الملك بحراسه غاضبًا :

ـــ كبّلوه جيدًا هذا الوغد .

اندفع حارسان بسرعة يقيد كل منهما ذراعي (سانتور) بقوة ، بينما رفع الثالث القدمين عن الأرض ليصبح بهذا عاجزًا عن الحركة مندهشًا غاضبًا يسأل :

ـــ لكن لمـــاذا ؟

أجابه الملك :

ـــ لأن السفاح يعتبر مثل هذه الأعمال دون مكانته ، فهو قائد عظيم لجنود لهم شأن عظيم عبـــر العقود ، ولما يقبل لواحدة من الأعمال التي لا تليق به فهو بالتأكيد يخطط لشيء خطر يضمر وراءه شرًا .

بدأ حاملوه بالتحرك به ، لكن هذا لم يمنعه من أن يقول بلهجة لوم :

ـــ ولكنني أخبرتك أنني أود الاهتداء .

ـــ هل تظنني أصدق أنك فجأة غيرت مبادئك وأهدافك وفرقت الصواب عن الخطأ خلال يوم واحد فقط ؟ إنها واحدة من ألاعيبك أيها السفاح .

ثم صاح بحراسه :

ـــ أخفوه عن وجهي في سجن القصر ، ولتحذروا ألاعيبه جيدًا .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

انتقى الشيخ (عبد الحميد) واحدة من خرائطه وفردها أمام عينيه ثم أشار إلى نقطة ما عليها وهو يقول :

ـــ هناك بئر فى هذا الاتجاه أيها الفارسان ، فلتتجه ناحيتها ريثما أكمل لكما قصة المعلم (خازن) .

وجه الثلاثة أجمة خيولهم إلى حيث أشار الشيخ بينما كان يحكى :

ـــ بعد طول عناء دون زاد أو ماء ، وبحذر شديد لتفادى جنود جيش العدو كنا نبحث عن (خازن الشيبى) بين وجوه الأسرى ، ووجوه منهكة تغيرت ملامحها بسبب التعذيب ، ووجوه أدركنا تمامًا رغم أعينها المفتوحة أنها لا ترانا ولا تشعر بوجودنا .. ربما ماتت أو فى حالة من اللاوعى أو عميت .. المهم أن أكثر ما أقلقنا هى الأماكن المقفلة ، كنا نخشى أن يكون بها أسرى من بينهم (خازن) .. حتى وجدناه .

صمت قليلاً ثم استطرد :

ـــ كان يبرز من الجليد أشواك لا أدرى كيف وضعوها أولئك الوحوش الآدمية ، كان (خازن) مقيدًا على ظهره إليها ، تعذيب بالبرودة والخدوش خاصة لو تحرك فوق هذه الأسنة المدببة .. تهللت أساريرنا ونسينا العناء والألم فور رؤيته ، وكدت أنسى وضعى من السعادة وأخرج من خلف الصخرة لإنقاذه لولا أن جذبنى (البقدونسى) بقوة هامسًا بغضب « تمهل .. والحراس ؟ » ، نظرتُ ناحيتهم مرتبكًا وهم يدورون حول الأسرى المقيدين فى الأرض أو المصلوبين أو المعلقين يتفحصون نبضاتهم وأعينهم ، فالتفتُ إلى (البقدونسى) لأستشيره فيما علينا فعله الآن ، لكن فوجئت به غير موجود .. هلعتُ وبحثت عنه بعينى فى كل مكان حتى وجدته يزحف بالقرب من (خازن) .. ولا أخفى عليكما أننى كدتُ أضحك إعجابًا بفطنته وحسن تصرفه ، وكذا لطريقته المضحكة فى الزحف .

كانوا قد اقتربوا من البئر ، فقال الشيخ :

ـــ هيا يا (زين) سد جوعك واملأ بطنك بالماء ، لكن بتمهل .

ترجل (علىّ) من فوق حصانه ليعاون (الزين) السائر منذ برهة ، على ملء القرب التى يحملونها من ماء البئر حتى ارتوى الجميع وفاض معهم الكثير مما سيحملونه فى مسيرهم .. ثم استحث (علىّ) الشيخ (عبد الحميد) لاستكمال القصة :

ـــ كانت أصعب لحظة على (البقدونسى) هى عند اقترابه من موقع (خازن الشيبى) حيث أدمت يديه الأشواك ، ولم يتمكن من تمزيق أى جزء من ملابسه ليحمى به يديه كى لا يجذب انتباه الحراس ، ثم ظهرت لحظة أخرى أكثر صعوبة من سابقتها ، عندما صاح أحد الأسرى المقيدين بجوار (خازن) معلنًا وجود غريب يحاول إنقاذ أسير .

قال (الزين) بغضب :

ـــ ولماذا يفعل ؟ تبًا له .

أجابه الشيخ مبتسمًا :

ـــ لا داعى للغضب يا (زين) أنت تعلم أن كليهما عبر هذه المحنة بخير .

ثم استطرد :

ـــ لقد ظن الأسير أنه بفضح أمر (البقدونسى) و(خازن) ، سيرضى الأعداء فيطلقوا سراحه ، ولكن فى الحقيقة أنهم كانوا أكثر احترامًا من ذلك ، فقد انقضوا على (البقدونسى) وقيدوه بجوار صديقه وذهبوا يستدعون كبيرهم ليبت فى الأمر ، ولما أتى ، أمر بقتل الواشى ، بحجة أنه

Looloo
www.dvd4arab.com

ارتكب خطيئة عظيمة .

ـــ مبدأ نبيل .

ـــ نعم ، ولكن كان عليّ وقتها إنقاذ رجلين بدلاً من واحد ، ودون أن ينفضح أمرى .

* * *

بدا رجُل (سانتور) المتمرد ، عريض المنكبين طويل القامة بلحية مهذبة وعمامة ملونة وهو ينـــزل عن جواده يقول بسخرية :

ـــ إن هذا الحصان ينن من وطأة ثقلى عليه ، ليتنى استعنت بجمل .

لم يتلق ردًّا فقال بأسى دون النظر وراءه :

فى يوم أعلنت تمردى على (سانتور) ، وأوضحت له ـ بعد طول تفكير ـ أننى لا أصلح أن أكون مجرد رجل من رجاله ، وأخبرته أننى سأكون جيشى الخاص ، وأننى لن أتواجد بهذا الجيش الجديد فى المناطق الخاضعة لشره ، فاعترض على هذا التمرد ، وحذرنى أنه لا أحد يتمرد على (سانتور) العظيم أو يعصى أوامره ، وأمهلنى حتى صباح اليوم التالى لأراجع نفسى .

سكت قليلاً ونظر لرفاقه فوجدهم يتبادلون قربة مياه ، ثم ناولها له ، شرب قليلاً ثم أكمل :

ـــ لم أكترث لتهديده ، وهربت فى الليـــل عائدًا ـ على مسيرة يوم ـ إلى زوجتى وطفلتى الصغيرة أعدّهما للرحيل .

إلى مكان آخر ، ولكن توجب علىّ تأجيل الرحيل يومًا واحدًا على الأقل للراحة من إنهاك السفر .

تحولت لهجته إلى الشراسة وهو يستطرد :

استيقظت على صوت جلبة لأجد (سانتور) ورجاله خارج الكوخ مقيدين زوجتى المسكينة وطفلتى الصغيرة ذات الأعوام الثلاثة ، مكممين فاهيهما والدموع تغمر أعينهما ، انطلقتُ باتجاههما ، لكن أصابنى رمح أحد الرجال ، ورأيت السفاح يسكب عليهما سائلاً أسود اللون كانا ينفران من لزوجته على جسديهما وهو يقول لى ببطء : « لا أحد يخرج عن طوع (سانتور) العظيم » ثم ألقى بشعلة فوقهما ، واحترقا أمامى .. احترقا وصوت صراخهما المكتوم يمزق قلبى ، وأنا عاجز عن إنقاذهما تمامًا لأن ثلاثة رجال كانوا يكبلوننى وأحدهم يضغط على الجرح مكان إصابة الرمح .

كان صوته متهدجًا فناداه الشيخ (عبد الحميد) ولما التفت رأى الدموع تغمر عينيه ، أخذ يواسيه وكذا (الزين) و(علىّ) حتى استرد جأشه وقال لهما :

ـــ لا داعى لهذا ، فأنا بخير .. رغم أن هذا الأمر لم يمض عليه سوى خمسمائة قمر وشمس .

قال (الزين) :

ـــ وهل ما زال الانتقام فى قلبك من وقتها لم تنفذه ؟

ـــ لن أكذب عليك أيها الفتى ، لقد حاولتُ مرتين وفشلت .. إن رجال (سانتور) أوفياء له إلى حد لا يصدق ، فلا يمكن الاقتراب منه حتى وهو نائم لأن خمسة رجال على الأقل يحرسونه حتى يستيقظ .

مضت هنيهة قبل أن يقول (علىّ) :

www.dvd4arab.com

ـــ هل هو ذا سور مدينتنا .

ـــ لكن أين جنود الأعداء ؟ لقد كنتُ أعلم أن العرافة تكذب .

هكذا قال (الزين ابن الجبال) .

* * *

وصل قائد جيوش الغرب إلى سور بلاد الشرق ، وبدأ فى إلقاء الأوامر لمساعده والجنـود كى ينتشروا حسب الخطة المسبقة ، وفجأة انشقت الأرض عن رجل تحت كل جواد من جياد الأعداء يسحب ممتطيها عنها ويجرده من السلاح ثم يكبله ، وبعض الرجال فوق الجبل الخلفى وسور المدينة قد ظهروا يصطادون بسهامهم ونبالهم من لم يتمكن رفاقهم منهم ، شعر القائد بالعجز عن التصرف وفكر فى طلب مدد من بلاده ولكن .. من عليه أن يرسله لإبلاغ الإمبراطور بحاجتهم إلى مدد ؟

* * *

لما اقترب (الزين) من سور بلاده أكثر ، ارتفع حاجباه وتسمر مكانه فوق الجواد ، فسأله (علىّ) :

ـــ ماذا بك يا (زين) ؟

ردد (الزين) بعد عدة نداءات من (علىّ) والشيخ (عبد الحميد) بينما رجل (سانتور) يتابع :

ـــ « ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغنى » .

ثم استطرد :

ـــ لم أفعل أيًا من هذا .

ابتسم الشيخ (عبد الحميد) بينما ارتبك (علىّ) وأعرب الرجل عن عدم فهمه ، وفجأة جال بخاطر (الزين) وجه الأميرة (سولى) .. وشعر بخفقان قلبه وفقد تركيزه ، ثم قرر الثلاثة دخول بلادهم .

بحذر .

* * *

نجح قائد جيوش الغرب مستخدمًا درعه وسيفه فى الهروب من أعدائه والابتعاد قدر الإمكان عن ساحة الأسر ، ولم يعـرف أين يذهـب فأخذ يدور حول الجبال المتناثرة حتى قابله رجل ضخم الجثة يشوى شيئًا داخل كهف قريب ، سأله القائد دون أن يفصح عن هويته :

ـــ أين أجد (سانتور) ؟

أجابه ضخم الجثة :

ـــ أنت غريب عن هذه الناحية ، ألست كذلك ؟

لم يرد عليه القائد ، فقال ضخم الجثة من جديد :

ـــ أنت تريد السفاح إذن ، فيم تريده ؟

كرر القائد :

ـــ أين أجد (سانتور) ؟

ناوله الضخم قطعة مما يشوى ، فأبى القائد تناولها منتظرًا الإجابة ، قضم الرجل قطعة بطريقة منفردة ، ثم قال من بين الدهن المتساقط :

www.dvd4arab.com

ـــ عشرين قطعة ذهبية وجوادك هذا .

هز القائد رأسه بمعنى أنه لم يفهم ، فقام الرجل ومد يده الملطخة إلى الجواد ثم فرك إصبعيه السبابة والإبهام وبعدها انتصبت أصابع يديه مرتين ليعلن عن عشرين إصبعًا ، أخرج القائد كيسًا صغيرًا ألقاه إلى الضخم ونزل عن جواده مادًا إليه اللجام ، ابتسم الضخم وسار به إلى حيث (سانتور) .

وصل الضخم راكبًا الحصان مع القائد المترجل حتى يعلو بطنه كهف يشوى أمامه عدد من الرجال لحمًا جال القائد بعينيه فيما حوله ليجد أن الكثيرين منهم ينتشرون على حواف الجبال المحيطة ، وأن عددًا آخر يشوى لحمًا أمام كهف آخر فى أحد الجبال ، ثم سمع الضخم يصيح :

ـــ زائر لسيدى (سانتور) العظيم ، وهو مجرد من أى سلاح .

صاح أحد الرجال من أمام أحد الكهوف :

ـــ هنـــا .

استدار ناحيته الضخم ثم لكز جواده فى الاتجاه ، وتتبعه القائد حتى ترجل الضخم وتسلقا معًا حيث الكهف . حاول الضخم أن يتكلم وسط لهاثه ، ولكن السفاح أشار إليه بالصمت وهو يوجه كلامه إلى القائد :

ـــ ماذا هناك ؟

ـــ كارثة .. سقط جنودى فى مصيدة سخيفة دبرها جنود الأعداء ، واستطعت الفرار بمعجزة .

ـــ والمطلوب ؟

ـــ مساعدتك لى ، أريد إرسال مدد من الإمبراطور .

سأله السفاح وهو يناوله بعض المـــاء :

ـــ ولماذا لا تذهب بنفسك ؟

تناول الماء وشرب منه ثم أجاب :

ـــ علىّ الاسترخاء حتى يصل الجنود لأتمكن من قيادتهم ، وكذا تجهيز خطة مناسبة بمعاونتك للتغلب على هؤلاء الشياطين .

قهقـــه (سانتور) عاليًا وطويلاً ، ثم قال والقائد مندهش :

ـــ أنت تخشى أن يعاقبك حاكم بلادك أو يعزلك ، أليس كذلك ؟

وعاود القهقهة من جديد ، فقام القائد محتقن الوجه يقول بغضب :

ـــ مولاى الإمبراطور يثق بكفاءتى وقدرتى على السيطرة على الأمور ، لولا هذا ما كلفنى بقيادة جيش البلاد أيها الأحمق .

لم يكد يلفظ كلمته الأخيرة حتى وقفت ذؤابات الكثير من سيوف رجال (سانتور) بسرعة على حافة عنقه ، بينما أوجه حامليها تنتظر أوامر زعيمهم الذى أشار بيده ليتراجعوا ، ولما فعلوا قال (سانتور) محذرًا القائد :

ـــ إياك أن تتجاوز حدودك مرة أخرى ، وعليك أن تتحدث معى بتهذيب أكثر من هذا ، فأنا لست واحدًا من رجالك المأسورين .

وصمت قليلاً متطلعًا إلى وجه القائد المتوتر ، ثم أضاف منتقمًا :

ـــ أيها الأحمق .

Looloo
www.dvd4arab.com

لم يرد القائد فقام (سانتور) وأخذ يلقى بأوامر عديدة على رجاله وخرج يتفقد الآخرين المتناثرين حول كهفه ، ثم عاد للقائد وقال له :

ـــ هاك ما سنفعله أيها القائد الفاشل ، ولتتعلم ممن سبقوك فى القيادة وتولى زمام الأمور .

وبدأ يملى عليه خطته .

* * *

٩ ـ النهاية وما قبلها ..

دخل حاجب الملك (شاكسير) ديوان الحكم وهو يقول :

ـــ الشيخ (عبد الحميد) وثلاثة معه يستأذنون فى الدخول يا مولاى .

أومأ الملك برأسه فانحنى الحارس وخرج ليدخل الرجال الأربعة محيين الملك ، ثم استفسر الشيخ عن خطر الحرب على بلادهم الذى سمعوا به فى رحلتهم فطمأنهم ، ثم تساءل بدوره عن الغريب الرابع المرافق لهم :

ـــ إنه رجل طيب قابلناه فى رحلتنا يا جلالة الملك ، وهو أيضًا فارس شجاع يمكننا ضمه لجيشنا إن شاء .

هكذا أجاب الشيخ (عبد الحميد) فسأله الملك :

ـــ هل هو أهل لثقتك يا شيخ ؟ أنت تعلم أن جيش البلاد ...

قاطعه الشيخ بقوله :

ـــ لا تقلق يا مولاى ، إنه مكسب لبلادنا وجيشها .

كان الرجل مترددًا مندهشًا مما قيل بحقه ، ثم اضطرب حينما سأله الملك :

ـــ هل لك خبرات فى القيادة من قبل ؟

لم يدرِ بما يجيبه ، فأنقذه الشيخ بقوله للملك :

ـــ ما دامت كل الأمور بخير أفلا نرتاح قليلاً من عناء السفر يا ملك بلاد الشرق ؟

ابتسم الملك وهو يقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

ــ بلى يا (عبد الحميد) ، يمكنكم الانصراف الآن ، ولكننى أريد (الزين) فور حصوله على القسط الكافى من الراحة .

ــ أمر مولاى الملك .

هكذا أجــاب (الزين) وهو يجول بعينيــه فى الديوان ، ثم انصرف الجميع .

* * *

كان إمبراطور بلاد الغرب يجوب ديوانه بغضب وهو يقول بسخط :

ــ لا أفهــم كيف يمكننى إرضاء هــذا الشعب المخبول ، لا شيء يرضيهم أبدًا .

ــ والدك كان يرضيهم .

التفت الإمبراطور إلى وزيره بغضب ، وهو يقول :

ــ والــدى ؟! هل نسيت ما حدث لوالدى أم إنه علىّ تذكيرك يا صديقى الوفى ؟!

ابتسم الوزير وقال بهدوئه المعتاد :

ــ بل ذكرنى بما حدث لك أنت ، ألم تصبح إمبراطور البلاد ؟

ــ بلى ، ولكننى عاجز عن تصريف أمورها العثرة .

ــ لا أحد يسير الأمــور وحــده ، عليك بالاعتماد على من كان ناجحًا فى هذا .

اقترب الوزير منه وربت على كتفه ، وقال فى أذنه بهمس :

ــ والدك لم يكن له طموح ، كان عجوزًا سئم الدنيا وينتظر لحظته الأخيرة .. ورغم هذا فلم يهتم بتأهيلك لتدبر زمام الأمور من بعده ، لم يكن يثق بقدرتك على حكم شعب بأكمله ، لذا فعليك أن تعتمد على نفسك فى هذا .. وأنا سأعاونك حتى تصبح ملك الأرض كلها لا بلاد الغرب فحسب .

صمت قليلاً يتابع كلماته على صاحبه ثم عاود الحديث :

ــ سأساعدك فى هذا ، المهم ألا تيأس بسرعة ، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى وقت طويل للإعداد وجهــد كبير للتنفيذ وكم وفير من الصبر والتأنى يا .. صديقى .

سأله الإمبراطور :

ــ وماذا عن الحروب ؟ غزونا لبلاد الشرق ؟ إن الشعب غير راضٍ عن هذا .

ــ وما أدراهم بما هو فى صالحهم ؟ اصبر حتى تصبح هذه البلاد ضمن ولاياتنا ويعم خيرها هؤلاء المعترضين الأغبياء ، وقتها سيقبلون يدك بل وربما سجدوا لك تقديرًا لاهتمامك بهم ورعايتك لمستقبل أولادهم .

ابتسم الإمبراطور وهو يسرح بخياله للمستقبل ، ويرسم بعينيه فى الهواء عرشًا أكبر مما هو جالس عليه الآن .

* * *

سأل (على التوحيدى) الشيخ (عبد الحميــد) وهما بداخل منــزل الأخير يرتبانه :

ــ لم تخبرنى يا شيخ كيف أنقذت (البقدونس) والمعلم (خازن) يوم كانا فى الأسر ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

ابتسم الشيخ واعتدل فى وقفته كأنما يتذكر أحداثًا لطيفة ، ثم أجاب :

ـــ لم يكن بالأمر العسير يا (علىّ) ، فقد تابعت تحركات حراس الأسرى حتى اقترب أحدهم من مخبأى والآخرون منشغلون عنه بجلبة صنعها (البقدونسى) ، مشاجرة سريعة بيننا غاب بعدها عن الوعى ، وكانت خطتى تعتمد على ارتداء ملابسه كى يظن رفاقه أننى واحد منهم ، ولكن اعتمدت على غطاء الرأس الحديدى الذى يرتدونه والعباءة الحمراء ، ثم اتجهتُ ممسكًا برمحه ناحية (خازن) و(البقدونسى) الذى كاد يلقى بعبارة ما سخيفة كعادته ويلفت الأنظار من جديد ، فأمسكت بهما كمن يقودهما إلى جهة ما مخفيًا وجهى فى ظهريهما ، وخدعت ملابسى الحراس حتى أصبحنا بمنأى عنهم .. وهربنا .

ـــ يا للعبقرية !

هتفها (علىّ) بإعجاب ، فرد عليه الشيخ :

ـــ العبقرية تكمن فى البساطة والثقة بالنفس يا (علىّ) .. هلم لنفرغ من هذه الدار نرتاح قليلاً قبل الذهاب إلى الملك .

قال (علىّ) بقلق :

ـــ بشأن (الزين) ؟

ـــ هل تعلم أن الملك سيُسر كثيرًا عندما يعرف بأحداث رحلتنا ؟

سأله (علىّ) بتعجب :

ـــ يُسرّ ؟ ولكن كيف ؟ إن (الزين) لم ينفذ شيئًا مما أرسله الملك لتحصيله .. لا الجوع فى بلاد الغنى ولا هذه الأمور كلها .

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يقول :

ـــ يا (علىّ) ، ما كان الملك يعنى هذا بالحرف ، لكنه أراد من (الزين) أن يكتسب الخبرات ويجوب البلاد .. وأنا أدرك تمامًا أنه كان يتوقع اصطحاب (الزين) لى فى الرحلة ، وبذا يستفيد من خبراتى بشكل أوسع وأسرع كى يتمكن من حكم بلاد الشرق كما هى إرادة الملك .. ولكننى أظن الملك سيجعل من (الزين) مساعده أو معاونه لفترة كى يكتسب خبرة الأمور الخاصة بشكل الحكم وكيفيته داخل القصر .

تمتم (علىّ) :

ـــ ولكنك يا شيخ .. أعنى ....

لم يخرج ما يجول بنفسه على لسانه فاستدركه الشيخ :

ـــ كلا يا (علىّ) ، لم يخبرنى الملك بأى مما قلته لك ، ولكنها الصداقة القديمة بيننا .. قد أصبح كلانا يفهم الآخر بمجرد التفكير يا ولدى ، وهذه أمور لا تتبدى إلا للأنقياء .

خفض (علىّ) رأسه فأكمل الشيخ :

ـــ وهذا لا يعنى أنك و(الزين) لستما بالنقاء المطلوب ، ولكنكما لم تنتبها للأمر بعد .

تهللت أسارير (علىّ) بعض الشىء ، ثم سأل :

ـــ لكن يا شيخ كيف عرف (البقدونسى) بأمرنا عند السفاح ؟

تطلع الشيخ فى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

ـــ صدقنى يا (علىّ) ، بحياتى لم أجد (البقدونسى) شديد الغموض مثل ذلك اليوم ، ولكن يمكننا اعتبارها تصاريف القدر .. نحن أيضًا ما كنا لنعرف بغزو الأعداء لبلادنا فى الرحلة لولا تصاريف القدر .. أليس كذلك ؟

www.dvd4arab.com

ـــ بلى يا شيخ .

جلس الشيخ ينظر إلى (علىّ) طويلاً ، فبادره الأخير سائلاً :

ـــ ماذا تريد أن تسألنى يا شيخ ؟

أجاب الشيخ بسرعة وهدوء :

ـــ ألا تغار من اختيار الملك لـــ (الزين) كى يكون ملكًا للبلاد ولم يختارك أنت ؟

ـــ كلا يا سيدى على الإطلاق ، أنت تعلم أننى أحب الخير لصديقى هذا ، وكون (الزين) هو الملك أو أنا ففى الحالتين كأننى أنا الملك بالفعل .. هل سيتأخر (الزين) عنى فى أى مطلب حين يكون ملكًا ؟ لا أظن .

ـــ ولكن يا بنى ، للسلطة شهوتها وغرورها .

ـــ لن يكون (الزين) إذن أهلاً للحُكم لو غلبته السلطة ، وأنت تعلم أكثر منى أنها لن تهزمه .

نظر الشيخ إلى أعلى ثم إلى (علىّ) ثم إلى الأرض ، والدموع تخالط ابتسامته .

* * *

وقف (الزين) أمام الملك (شاكسير) يجيب :

ـــ بلى يا جلالة الملك ، ولكننا فور علمنا بأمر اتجاه جيوش الغرب إلى مملكة الشرق لغزوها ، قررنا إنهاء الرحلة والعودة لمساندة أهلنا .

ـــ فى الحقيقة أننى لا أستطيع الجزم بصواب أو خطأ هذا القرار ، ولكن حسن النية فيه وعدم التسبب بأضرار لأحد أمر كاف لإدراك أنك بذلت جهدك .

هُض الملك واتجه ناحية (الزين) وهو يقول مبتسمًا :

ـــ لقد جعلتك تنبش فى الأرض عن الصعاب كى تجدها ، حتى عندما يقف أمامك رجل تستطيع أن تنبش بداخله ، وتعرف أصديق هو أم عدو .. مخلص لك أو مدعٍ .

ـــ ولكننى لم أحقق ما أمرتنى به يا مولاى ، فما وجدت العدل فى بلاد الظلم ، ولا ...

قاطعه الملك :

ـــ كان هدفى الأول أن تكتسب خبرات الحياة بشكل أكثر وأسرع يا (زين) .. وكنتُ متوقعًا اصطحابك للشيخ (عبد الحميد) .

استطرد الملك :

ـــ أنت تعلم يا ولدى أنه ليس من سمات بلادنا تمليك حكمها للنساء ، فهن رقيقات القلب يتبعن عواطفهن المرهفة لا عقولهن ، كما أنهن لا يمتلكن الخبرة والحكمة كالرجال الذين يطوفون البلاد ويتعاملون مع صنوف البشر المختلفة .. إنهن محصورات فى علاقاتهن مع الأقارب والجارات .

صمت الملك قليلاً ثم توجه إلى عرشه وهو يكمل :

ـــ أنت ستصبح زوج ابنتى ، وستتولى حكم البلاد فى يوم من الأيام .

نظر إليه (الزين) بدهشة ، فقال الملك مبتسمًا وهو يغمز بعينه :

ـــ لا تظننى لم ألحظ نظرات الإعجاب فى عينيك .

أطرق (الزين) خجلاً وهو يتمتم فقاطعه الملك مرة أخرى :

ـــ وهى كذلك .

ارتفع وجه (الزين) إلى الملك منبهرًا راغبًا فى الاستزادة ، لولا دخول الحاجب :

www.dvd4arab.com

ـــ الشيخ (عبد الحميد) وشاب مرافق له يا مولاى الملك .

ـــ فليدخلا ، وابعث إلينا بالسفاح مع ثلاثة من الحراس الأشداء .

ثم وجه كلامه إلى (الزين) :

ـــ لابد أن نضع حدًّا لهذا السفاح ونقرر ما علينا أن نصنع به .

أومأ (الزين) برأسه بينما دخل الشيخ و(علىّ) ، فرحب بهما الملك وسألهما :

ـــ أين صديقك الذى أوصيت أن يكون فى جيش البلاد يا (عبد الحميد) ؟

ـــ فى الحقيقة أيها الملك إننى ...

قاطعه الملك بهدوء :

ـــ أعلم أنك لم تعن ما قلته يا (عبد الحميد) ، أنت كنت تحاول تعليم ذلك الرجل شيئًا ما ، أليس كذلك ؟

ابتسم الشيخ وهو يجيب باقتضاب :

ـــ بلى .

دخل ثلاثة من الحراس حاملين (سانتور) على أكتافهم ليعيقوا حريته فى التحرك ، وكـــان يرتدى نفس الملابس التى سُجن بها .. جلباب يعلوه وشاح يحيط برقبته ، كان الجميع جلوسًا يحدقون فيه فقال بسخرية :

ـــ فيم تحملقون ؟ أتظنوننى قردًا ؟

تجاهل الجميع جملته ، ودخل الحاجب يهمس فى أذن الملك الذى أومأ برأسه ثم سألهم :

ـــ ماذا ترون أن نصنع بسفاح مثله يا سادة ؟

بدأ (سانتور) فى الاحتجاج والصياح وكان يهتز فوق أكتاف الحراس حتى سقط ، فى اللحظة التى دخلت أميرة البلاد متجهة نحو أبيها ، فسحب وشاحه ليظهر من تحته سوطًا غليظًا أخذ يجلد به الحراس وهو يدور حول نفسه ، كان الأمر سريعًا مربكًا ، لكن (الزين) كان أكثر الجميع حنكة ذ قفز باتجاه الأميرة وألقى بها أرضًا ، ثم سحبها ناحية العرش ليتمكن من حمايتها مع الملك فى الوقت الذى كان فيه (علىّ) يحاول قطع السوط الطويل بسيفه ، لكن بدا (سانتور) ماهرًا فى إبعاده عن ذؤابة سيف (علىّ) ، ووسط هذه الجلبة دخل الكثير من حراس القصر إلى الديوان لولا أن صاح بهم الشيخ (عبد الحميد) آمرًا :

ـــ عودوا لحماية القصر .. كل غرفة فيه ، كل مدخل .. أسرعوا .

تردد الحراس لأنه من غير المنطقى تنفيذ أوامر رجل غير قائدهم والملك ، ولكن صاح بهم الأخير بدوره :

ـــ افعلوا كما أمر .. هيا .

بينما هم منتشرون فى أرجاء القصر ، دخل وزير الدولة ساخطًا يقول :

ـــ ماذا يحدث هنا ؟

صاح به (سانتور) وهو لا يزال يضرب بسوطه فى الهواء كى يمنع اقتراب أى من الموجودين ناحيته :

ـــ اخرس والزم مكانك .

ثم استطرد ساخرًا :

ـــ المزيد من الشيوخ إذن ، يا لها من دولة تستحق الاحتلال حقًّا .

وقفت الأميرة على قدميها تتعلق بـــ (الزين) وهمس فى أذنه :

Looloo
www.liva4arab.com

هل يمكننى مساعدتك أيها الفارس ؟ إننى أرغب فى ذلك حقًا .

لم يمنع (الزين) نفسه من الابتسام وهو يقول هامسًا :

ــ هذه ليست رحلة صيد أيتها الأميرة ، إن الأمر شديد الخطورة بحق .

ــ أعلم هذا ، لذا أريد المساعدة .. أريد أن أفعل شيئًا له أهمية .

شارك (الزين) الآخرين تفكيرهم الصامت فيما يتوجب عليهم فعله لإنهاء هذا الوضع الحرج ، وكان أول المتكلمين هو (الملك) :

ــ ما هى خطتك أيها السفاح ، أتظنك قادرًا على الخروج من هنا سالمًا وأنت فى وضعك هذا ؟

وسأله الشيخ (عبد الحميد) :

ــ هل هناك من يشتت انتباهنا من أجل أن يقتحم القصر مثلاً ؟

شعرت الأميرة بسؤال فى حلقها فأخرجته :

ــ كيف تخلصت من قيودك ؟! لابد أنك كنت مقيدًا أيها الشرير .

هذه المرة كانت الوحيدة الذى التفت فيها (سانتور) إلى محدثه وأخذ يقهقه ، وكانت أفضل فرصة ليمزق (علىّ) السوط ويرمى (الزين) بسيفه إلى صدر (سانتور) ، ولكن السيف مزق جزءًا فقط من ملابسه مصدرًا رنة معدنية قال بعدها (سانتور) وهو يتناول سيف (الزين) :

ــ درع واقٍ مثبت إلى الصدر ، فكرة لم تخطر لأكثركم حذقًا أيها الفتى .

كان وضع (علىّ) شديد الصعوبة بعد أن امتلك (سانتور) سيفًا ، فسأل من مكانه :

ــ معه سيف الآن يا (زين) ، ماذا ترانا فاعلين ؟

صاح به (الزين) :

ــ لا أدرى يا (علىّ) فكر بشىء .

سألته الأميرة :

ــ هل أفكر معكما ؟

سحبها الملك وضمها إلى صدره وهو يقول :

ــ لا تخافى يا بنيتى ، ستمر الأمور بسلام .

سحبت نفسها منه وهى تقول :

ــ أنا لست خائفة يا أبى ، ولكننى أريد أن ننتصر على هذا الشرير .

* * *

لم يكن الاتفاق بين (سانتور) وقائد جيوش الغرب سوى خطة شيطانية يحقق بها السفاح مآربه ، ففى الكهف ألقى على مسامع القائد ما أذهله :

ــ سأذهب إلى ملك هــذه البلاد أقتلقه أو أدعى أى شىء يرفضه ، ثم يزج بى فى السجن ، سيحضر الشيخ (عبد الحميد) ، وقتهــا يستدعينى الملك لأمثل أمامهما ، سأوفر لك بهذا الكثير من الوقت لتكون قد جلبت مددًا من بلادك ، سأحدث جلبة فى ديوان القصر وسيجتمع معظم الحراس فيه ، سيقوم رجالى باقتحام القصر وقتل الحراس وأسر الخدم والملك وابنته .. ريثما يصل الخبر إلى المدينة كلها سيقل عدد الجنود القائمين على حراستها ، وقتها يحين دورك .. عليك اقتحام المدينة فى وقت سريع جدًا والاتجاه إلى القصر لمساعدتى .. سأعتمد عليك

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ ما لك منهكًا رثًا يا قائد جيوش الغرب ؟

قالها إمبراطور بلاد الغرب وهـــو جالس على عرشه ومن خلفه وزيره ـ صديقه ـ فأجاب القائد :

ـــ انجدنى يا مولاى الإمبراطور .. لقد أسروا الكثير من الجنود وقتلوا بعضهم ، إننى بحاجة إلى مدد للسيطرة على الأمور .

قطب الوزير حاجبيه بينما صاح الإمبراطور الشاب بغضب :

ـــ كيف حدث هذا ؟ أى قائد جيوش أنت لتصل أمورك إلى هذا الحد ؟

قال الوزير :

ـــ بل وكيف نجوت أنت دون الباقين ، ألا ترى هذا غريبًا أيها القائد ؟

قالها بلهجة فهمها القائد وجزع منها ، سأله الإمبراطور :

ـــ ماذا تعنى يا وزير البلاد ؟

ـــ إننى أتحدث عن خيانة ما هنا يا جلالة الإمبراطور .

ردد الإمبراطور كلمة « خيانة » مرتين وهو يقطب جبينه مسلطًا نظراته على القائد الجزع الذى قال :

ـــ أى اتهام هذا يا مولاى ؟ إن ولائى لجلالتكم والبلاد أمر لاشك فيه أبدًا .

ـــ أخبرنى إذن بما فعلته كى تنقذ نفسك مخلفًا وراءك جنودك قتلى وأسرى .

شرع القائد يحكى خطته وكيفية تنفيذها وخروج جنود بلاد الشرق من تحت الأرض ، واستمر حتى وصل إلى نقطة ذهابه إلى (سانتور) فصاح الوزير جزعًا :

ـــ الســـفاح ؟!!

ـــ أنت شيطان .

قالها القائد بانبهار ، فرد عليه (سانتور) متصنعًا التواضع :

ـــ لا داعى للمجاملات الآن .

* * *

وقفت الأميرة تتطلع إلى (الزين) بإعجاب وهى تقول له :

ـــ هل تعلم أننى تمنيت يومًا مشاركتك إحدى المغامرات ؟

ـــ هل راق لك الأمر ؟

ـــ جدًّا .. إننى سعيدة أن خُضت مغامرة تحتوى بعض الخطر .

ثم استطردت :

ـــ وأن هذه المغامرة كانت معك أنت .

ـــ أنا أيضًا سعيد أن حققتُ لك شيئًا تأملينه .

اقترب منهما الملك يقول :

ـــ يمكنكما إكمال حديثكما فى البستان خارج القصر .

أمسك (الزين) بيد الأميرة وهى تقول له متجهين إلى خارج القصر :

ـــ هل تعرف قصة من يُدعى « الشاطر حسن » الذى انتصر على « الغـــولة » وكسب قلب أميرة البلاد ؟ لقد حدثتنى بها الوصيفة الكثير من المرات .

ابتسم (الزين) وهو يسألها :

ـــ أكان حقًّا يدعى (حسن) ؟

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

وبعد هذا لم يتمكن من تبرير موقفه أبدًا ، والندم يفتك بقلب الإمبراطور لما اتخذه بشأن القائد السابق .

* * *

بعد فترة لم يجد السفاح أى بادرة لاقتحام جيش الغرب للمدينة ، أو لاقتحام رجاله المنتشرين فى أرجائها قصر الملك – كما هو متفق – فى حال عدم حضور قائد جيوش الغرب ومدده ، فقرر أن يرتجل .. قال :

– أود مبارزة الشاب الفتىّ رجلاً لرجل .. ولو أنه انتصر فافعلوا ما يحلوا لكم بى .. ولو أننى انتصرت فأخرج من هنا آمنًا .

بادر (الزين) بالرد قائلاً :

– كلا أيها السفاح ، أنا أرفض مبارزتك .

اندهش الجميع خاصة الأميرة لردة الفعل غير المتوقعة هذه ، فقال (سانتور) – برغم دهشته بدوره – :

– أحيى فيك تقديرك لنفسك ومعرفتك بعجزك عن الانتصار علىّ .

– ليس الأمر هكذا ، ولكننى فقط لا أرغب فى منازلتك .

لم يتمالك الملك السيطرة على فضوله الشخصى فسأل (الزين) :

– لماذا يا (زين) ؟

– لأنه يا مولاى فى موقف الأضعف ، يمكننا فعل ما نشاء به دون الحاجة إلى منازلة سخيفة لا طائل من ورائها سوى إثبات قوة الأقوى .. لِمَ ترى أنه علينا الخضوع لرغبته يا مولاى ؟

كان (الزين) فى إجابته متجهًا بوجهه ناحية الملك .. علق (سانتور) قائلاً :

– ولكننى فى الموقف الأقوى ، لدىّ سيفى بمهارتى وقوتى وأعلم أنكم مجتمعين لا تستطيعون هزيمتى .

تحركت الأميرة باتجاهه متمتمة بأشياء غير مفهومة مقطبة جبينها تحرك يديها ، ثم وقفت أمام (الزين) الذى اتجه بجسده ناحية (سانتور) وقد لمح فى نطاق الأميرة خنجرًا صغيرًا ، تظاهرت الأميرة بالتراجع والسقوط فلحقها (الزين) وبينما هو يفعل سحب الخنجر بسلاسة وعاونها على النهوض مرة أخرى ويده خلف ظهرها فانحنيت للأمام بسرعة وألقى (الزين) بخنجره ناحية (سانتور) وهو يصيح :

– الآن يا (علىّ) .

وبينما كان السفاح يتفادى الخنجر المصوب إلى رقبته قفز (علىّ) باتجاهه مسلطًا ذؤابة سيفه على الرقبة بعد أن ركل الآخر الممسك به السفاح ، ثم صاحت الأميرة وهى تصفق :

– انتصرنا ، لقد كان الخنجر مثبتًا إلى ظهر العرش .

قال الشيخ (عبد الحميد) بتنهد :

– انتصرنا .

دخل كبير الجند فجأة ليفاجأ بالوضع الذى عليه الجميع ، فقال باندهاش :

– لقد ألقينا القبض على عدد من الرجال ذوى الملابس الخضراء يا مولاى بالخارج .. كانوا ينوون ...

قطع حديثه قليلاً ، ثم استطرد :

– ماذا يحدث هنا يا مولاى ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

ـــ لا بأس يا كبير الجند ، لا شأن لك بأى تقصير .. ماذا عمن ألقيت القبض عليهم ؟

ـــ لقد كانوا ينوون اقتحام القصر ، لكن لمحهم بعض الجنود عند عودتهم أثناء تبديل الدورية .

وكانت الأسئلة تتردد فى الأذهان ..

كان ما يلح على (علىّ التوحيدى) هو : كيف عرف (الزين) بأمر قتاله مع ذوى الملابس الخضراء منذ بضعة أسابيع ؟!

وكان يلح على (الزين) : كيف أن (البقدونسى) عرف بمكان وجودهم أسرى عند السفاح ؟!

* * *

تمـــــت

رقم الإيداع : ١٨٧٤
الترقيم الدولى : ٦ ـــ ١٥٢ ـــ ٣٧٨ ـــ ٩٧٧

Looloo
www.dvd4arab.com

أحمد محيى الدين

21/1/012

الزين ابن الجبال

" ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغنى ".

قالها (الزين) فسأله الشيخ (عبدالحميد) مندهشا :

- ماذا تقول يا (زين) ؟

- هذه أوامر الملك كى أتولى الحكم من بعده.

- الحكم !! هل ستكون الملك يا (زين) ؟

- هكذا أمرنى الملك يا شيخ ، ماذا أفعل ؟

همس الشيخ كأنما يحادث نفسه :

- ليس له وريث.

- لكن له وريثة.

- هو يود إعداد من يتولى مُلك البلاد من بعده ، أنت تعرف أن النساء لا تصلح لهذه الأمور.

أخذ الشيخ (عبدالحميد) يتفكر قليلا ، و(الزين) جالس أمامه ينظر إليه حتى قال :

- أهذا فقط كل ما أخبرك به الملك ؟

المؤلف

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والاسكندرية